الفصل الثالث

الصعوبات التي واجهت الحملات الصليبية في آسيا الصغرى في الفترة (٤٩١-٤٩٤هـ/١٠٩٧-١١٠١م)

- الصعوبات التي واجهت الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى.
- القضاء على حملة سنة (٤٩٤هـ/١١٠١م) في آسيا الصغرى.
  - هزيمة الجيش اللومباردي في آسيا الصغرى.
  - إبادة جيش كونت نافار في آسيا الصغرى.
  - نهاية جيش دوق اكويتين- أقطانيا- في آسيا الصغرى.

الصعوبات التي واجهت الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى:

«... لقد كنت الجسر الموصل بين الشرق والغرب، والمعبر الذي تلتقي عنده أوربا وآسيا، ولم أكن معبر سهل الاجتياز...؛ لأن البحر يحيطني من ثلاث جوانب وتحميني سلسلة جبال من الجهة الرابعة، وهضبتي المربعة تثبط من عزم أي معتدٍ...، وكنت حصنًا صخريًا صُمم ليكون مقبرة للغزاة... لقد كنت المانع الذي يجب اجتيازه، والطريق الذي يجب عبوره للوصول للمجد والثروة والسعادة»(١).

بهذه العبارة البليغة عبر أوتين Ottin عن أهمية إقليم آسيا الصغرى كطريق بين الشرق والغرب ومدى صعوبة عبوره، ذلك الإقليم الذي ينتهي به الطريق البري الموصل من أوربا إلى الشرق، ذلك الطريق الذي اختاره القادة الصليبيون الأوائل في رحلتهم للوصول إلى الأراضي المقدسة، وفضلوه عن الطريق البحري السهل بالرغم من طوله وصعوبة اجتيازه(٢)، ولم يكن يدور بخلد هؤلاء أنهم سيدفعون ثمن هذا الاختيار غاليًا، وهو فشل حملاتهم، وعجزهم عن تحقيق أهدافهم.

فإذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد انتهت بتحقيق أهدافها في الشرق وتأسيس عدد من الإمارات الصليبية، فإن ذلك لا يعني أنها وصلت إلى الأراضي المقدسة دون عقبات اعترضت طريقها، ففي الحقيقة إن الطريق لم يكن أمامها سهلاً ممهدًا، وإنما كان شاقًا وعسيرًا اكتنفته العديد من الصعوبات، وعانى فيه الصليبيون الكثير من المخاطر، وكانشبح الموت يطاردهم بين الحين والآخر، وتصدى لهم السلاجقة في آسيا الصغرى

---

(1)Ottin, Land of Emperors, p. 9.

(2)Oman, Ch., A History of the Art of War in The Middle Ages, I, A.D. 378-1278, p. 237؛ France, Victory, p. 3.

- للوصول إلى الشرق كان هناك طريقان، الطريق البري عبر هنغاريا وبلاد المجر والقسطنطينية وآسيا الصغرى، والطريق البحري وهو طريق مباشر يبدو أكثر آمنًا، ولكن بسبب الخوف من ركوب البحر وقلة الخبرة بسلوك هذا الطريق، سلك الصليبيون الأوائل الطريق البري، فالرحلة عبره تبدو أقل خطرًا، كما أنه كان أقل تكلفة، ويناسب الجماعات الكبيرة من الحجاج على الرغم من صعوبة عبور آسيا الصغرى لاسيما وأن السلاجقة كانوا يسيطرون على معظمها في هذه الفترة.

Oman, Art of War, I, pp.337-338.

رنسميان، الحروب الصليبية، ج١، ص٨٧، ١٣١.

بكل قوة، وحشدوا لهم ما استطاعوا من قوة إن لم يكن للقضاء عليهم فعلى الأقل لإضعافهم، بحيث يصبحون عند وصولهم إلى هدفهم في حالة يعجزون معها عن تحقيق أي شيء.

ويذكر أحد الباحثين ما كان يمكن أن يحدث لو أن هذه الجموع استطاعت الوصول إلى الشرق بكامل عدتها وأعدادها دون أن تعاني ما عانت، أو تتكبد ما تكبدته من خسائر في آسيا الصغرى، بأنه لو حدث ذلك لاستطاعت هذه الحشود أن تؤثر في الخريطة السياسية لبلاد الشام ومصر بصورة أكثر عمقًا واتساعًا عما أحدثته، وربما كانت قد غيرت تاريخ المنطقة بأسرها(١).

ولكن شاء حظ المسلمين أن تلعب آسيا الصغرى-ذلك المعبر الشاق- دورًا كبيرًا في إضعاف جيوش الصليبيين أحيانًا، وغدت مقبرة لبعضها أحيانًا أخرى، وكانت حملة العامة هي أول الحملات التي قضى عليها السلاجقة قضاءً مبرمًا في آسيا الصغرى، بعد أن عانت جموعها الكثير من الصعاب(٢)، ولم يبق من رجالها الذين قدرهم جون فرانس بـ٢٨ ألف من المشاة، و٧٠٠ من الفرسان، سوى ٣ آلاف انضموا بعد ذلك إلى حملة الأمراء(٣)، وعبرت أنا كومنينا عن المذبحة التي حلت بهذه الجموع الصليبية خير تعبير بقولها: «وكان عدد الحشود الفرنجية والنورماندية التي أفنتها سيوف السلاجقة كبيرًا جدًا لدرجة أنه إذا جمعت أشلاء الذين قتلوا في بقعة محدودة لكونوا مرتفعًا شاهقًا، إنني في الحقيقة لا يمكنني أن أقول أنه مثل قطعة من مرتفع، أو إنه مرتفع أو تل أو قمة، لكن أقول إنه جبل شاهق الارتفاع بعيد العمق»(٤)، وبذلك انتهت حملة العامة نهاية مأساوية

---

(١) علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص٢٢-٢٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن أحداث حملة العامة في آسيا الصغرى:

المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٢٠؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص٦٣-٦٤؛ أنا كومنينا، الالكسياد، ص١٤-١٥؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص١٢٥-١٣٠.

Duncalf, Peasants' Crusade, pp. 450-451؛ Krey, Frist Crusade, p. 74؛ France, Victory, p. 135.

(3)France, Victory, p. 142.

(٤) أنا كومنينا، الالكسياد، ص١٥.

(Krey, Frist Crusade, p. 77).

في آسيا الصغرى، وقضى السلاجقة على أفرادها قبل أن يروا الأرض المقدسة التي تفيض«لبنا وعسلا» كما وعدتهم البابوية[١].

أما الأمراء الصليبيون وجيوشهم النظامية، فكان عليهم منذ أن وطأت أقدامهم آسيا الصغرى أن يستعدوا لخوض معركة حامية الوطيس، عدوهم فيها ليس السلاجقة فحسب، وإنما طبيعة إقليم آسيا الصغرى وما يترتب على ذلك من آثار بالغة السوء على الجيش الصليبي، ذلك أنه بعد عبور الجيش الصليبي مضيق البسفور كان عليه سلوك الطريق من نيقوميديا إلى نيقية عبر منطقة جبلية شاقة لا تتسع لهذه الحشود الصليبية، الأمر الذي اضطر جود فري دي بوايون إلى إرسال القوات والعمال لتطهير هذا الطريق وتنظيفه[٢]، وقد أرهق الصليبيين السير في هذه المنطقة الجبلية، وأخذت مؤنهم في النفاذ، وعندما وصلوا إلى نيقية كانوا في حالة شديدة من التعب ويعانون من نقص شديد في الغذاء[٣]، فضلاً عن أن الصليبيين قد تأثروا بشدة بما رأوه من عظام حملة العامة أثناء سيرهم في هذا الطريق، وعبر فوشيه الشارتري عن ذلك بقوله: «وقد هز هذا المنظر مشاعرنا وذرفنا الدموع الغزيرة»[٤]. (عن خط السير انظر الخريطة رقم ٢).

على أي حال لم يكد ريموند كونت تولوز يصل إلى نيقية في ١٦ مايو ١٠٩٧م، كانت فرقته هي آخر الفرق الصليبية التي وصلت إلى المدينة ، ويشرع في إقامة معسكره جنوب المدينة، حتى هاجمته قوة سلجوقية تتألف من ١٠ آلاف جندي أرسلها قليج أرسلان الأول-الذي كان مشغولًا في ذلك الوقت بالنزاع مع الدانشمنديين حول السيطرة على مدينة ملطية[٥]- بعد أن أرسلت إليه حامية المدينة تطلب النجدة وحثته

---

(١) رأفت عبد الحميد، خيانة القضية الصليبية، ص٧٩.

(٢) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٣.

France, Victory, p. 122.

(٣) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٣.

Payne, Crusades, p. 68.

(٤) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٤٥-٤٦.

(٥) كانت ملطية موضع تنافس شديد بين سلاجقة الروم والدانشمنديين، وبعد انتصار قليج أرسلان الأول على حملة العامة اتجه إليها وحاصرها، ولكن أهلها تحالفوا مع الدانشمنديين ضد السلطان السلجوقي.
لمزيد من التفاصيل:
=

على الهجوم على المدينة من الناحية الجنوبية، التي لم تقع تحت الحصار حتى ذلك الوقت، ولكن عندما وصلت القوات السلجوقية إلى المدينة وجدتها قد اكتمل حصارها، وتصدى لها ريموند كونت تولوز وفرقته، فانسحبت بعد قتال قصير[١].

بيد أن ريموند كونت تولوز لم يلبث أن تعرض لهجوم أشد وأنكى، فقد جاء قليج أرسلان الأول على رأس جيش كبير، مما أثار حماس القوة السلجوقية التي فرت من قبل، وعادت للقتال بقوة وإصرار شديدين، وأصبح الأمير الصليبي في موقف لا يحسد عليه بسبب عدم قدرة جودفري دي بوايون أو بوهيموند النورماني على ترك جانب المدينة الذي كانا يقومان بحراسته والقدوم لمساعدته، ودار قتال عنيف بينه وبين السلاجقة استمر يومًا كاملاً كادت الدائرة تدور فيه على ريموند كونت تولوز وقواته لولا قدوم جيش روبرت كونت فلاندرز لنجدته[٢].

وبالرغم من أن القتال لم يكن حاسمًا لأحد الطرفين إلا أن قليج أرسلان الأول، أدرك صلابة مقاومة الصليبيين، فقرر الانسحاب بعد أن كبد الصليبيين الكثير من الخسائر وقتل منهم عددًا كبيرًا (حوالي ٣ آلاف)، من بينهم بلدوين كونت غنت Baldwin Count of Ghent، ومعظم من كتب له النجاة من هذه المعركة ظل يعاني جراحه[٣]، ويصف ألبرت دي إكس هذه المحاولة الهجومية بأنها كانت معركة

=

علي المحيميد، الدانشمنديون، ص٧٧-٧٩، ١٦٨؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٦٤.

(١) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٤؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص١١٠.

Runciman, S., "The Frist Crusade: Constantinople to Antioch" in: Setton, K.M. & Baldwin, M.W. (eds)). A History of the Crusades, I, (Philadelphia 1955), p. 289.

(٢) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٣٧؛وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٠٤-٢٠٥.

Runciman, Frist Crusade, p. 290.

تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الفرنج من بداية الحرب الصليبية حتى وفاة نور الدين، (ليبيا د.ت)، ص٦٩.

(٣) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٤٦، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٤؛الحريري، الأعلام والتبيين، ص٦٢.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٦٧-٢٦٨؛زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون في الشرق، ترجمة/ الياس شاهين، (موسكو ١٩٨٦)،ص٧٤.

شرسة وثقيلة الوطأة على الجيش الصليبي، عادت خسائرها على كلا الجانبين[١].

ويبدو أن قليج أرسلان الأول كان يهدف من وراء هذا الهجوم توجيه هزيمة للصليبيين تؤدي إلى إحباطهم، فإن لم يكن ذلك فمحاولة لإبعادهم عن المدينة أو على الأقل تزويدها بالقوات العسكرية اللازمة للدفاع عنها ضد الصليبيين[٢].

على أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته، أنه بالرغم من فرار السلطان من أمام نيقية وإلقاءه بمسئولية الدفاع عنها إلى حاميتها؛ حيث أرسل إلى رجالها قائلاً: «اعملوا منذ الآن وصاعدًا ما ترونه مناسبًا»[٣]، إلا أن هذا لا يعني أن العقبات قد زالت من أمام الصليبيين، أو أن الباب أصبح مفتوحًا على مصراعيه لدخول المدينة؛ ذلك أنه لم تلبث أن وقفت تحصينات نيقية القوية عقبة كبرى أمام الصليبين، فضلاً عن دفاع حاميتها المستميت، وقد علق ريموندا جيل على قوة تحصيناتها بقوله: «إن المدينة لم تكن تخشى هجوم الأعداء، ولا قوة أي آلة»[٤]، فالمدينة يحيطها سور عظيم يبلغ ارتفاعه حوالي ١٠ أمتار، وتقطعه ٤ بوابات، وعليه ١١٤ برج يبلغ ارتفاع كل منهم ١٧ مترًا، ويحيط بهذا السور خندق مائي يستمد ماءه من بحيرة نيقية غرب المدينة[٥].

أصابت هذه التحصينات الصليبيين بالدهشة والقلق عندما اقتربوا من المدينة، فبدا لهم أن الاستيلاء عليها مسألة في غاية الصعوبة[٦]، ومما يؤكد هذه الصعوبة ما ذكرته أنا كومنينا: من أن الإمبراطور الذي خبر نيقية وتحصيناتها أدرك أنه من غير الممكن الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين مهما كانت أعدادهم كبيرة وقواهم

---

(١) نقلاً عن:

France, Victory, p. 161.

(٢) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٤٦.

France, Victory, p. 161.

(٣) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٣٧.

(٤) ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص٧٧.

Krey, Frist Crusade, p. 103.

(5)Payne, Crusades, p. 67. France, Victory, p 143؛

(٦) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٠٠.

Payne, Crusades, p. 67.

طاغية[١]؛ ذلك لأنه لم يكن أحد يستطيع اقتحام أسوار المدينة القوية أو حتى الاقتراب منها دون أن يتعرض للخطر، فإذا أفلت من هجوم الحامية بعد عبور الخندق المائي سيتم قذفه من منجنيقات الأبراج الموجودة أعلى سور المدينة[٢].

وإذا كان الصليبيون قاموا ببناء العديد من آلات نقب وهدم الأسوار للتغلب على هذه الصعوبة، إلا أن هذه المجهودات ذهبت كلها أدراج الرياح بسبب شدة مقاومة الحامية لها، ومما يدل على ذلك ما ذكره ألبرت دي إكس: من أن كل المحاولات التي بذلها الصليبيون في نقب سور المدينة، وما قاموا به من بناء آلات لهذا الغرض كلها باءت بالفشل، بل إن إحدى هذه الآلات التي أقامها رجلان من رجال جودفري دي بوايون، وكانت تتسع لعشرين رجلاً بداخلها يقومون بنقب سور المدينة، قد انهارت من شدة قصف السلاجقة لها، وقتل من بداخلها مما أحزن الصليبيين على موت رفقائهم، وضياع مجهود كبير بذل في إقامة هذه الآلة[٣]، هذا بالإضافة إلى أن محاولات ريموند كونت تولوز لهدم برج يوجد في الناحية الجنوبية من سور المدينة لم تفلح، فقد ظل البرج صامدًا أمام كل محاولات الهدم، الأمر الذي عبر عنه وليم الصوري بقوله: «إلا أن هذا البناء الصلد أثبت أنه من المستحيل زحزحة حجر واحد منه»[٤]، وإذا كان الصليبيون قد استطاعوا مع استمرار النقب هدم بعض أجزاء من السور، إلا أن ما كان يهدمه الصليبيون أثناء النهار كانت تقوم حامية نيقية بترميمه أثناء الليل عندما يتوقف الصليبيون عن النقب وتكررت هذه العملية عدة مرات[٥].

ويبدو أن ما ساعد حامية نيقية على الصمود ما كان يأتي إليها من إمدادات وقوات

---

(١) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٣٨.

(٢) ريموناجيل، تاريخ الفرنجة، ص٧٧.

Krey, Frist Crusade, p. 103.

(٣) نقلاً عن:

France, Victory, pp. 163-164.

(وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٠٧-٢٠٨).

(٤) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢١١.

(٥) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٥؛ريموناجيل، تاريخ الفرنجة، ص٧٨.

Krey, Frist Crusade, p. 102؛ France, Victory, p. 162.

عبر بحيرة نيقية، مما دفع الصليبيون إلى أن يرسلوا إلى الكسيوس يطلبون منه؛ إرسال السفن لإغلاق البحيرة، الأمر الذي أصاب حامية المدينة بالفزع عندما رأت هذه السفن وعلمت أنها مرسلة من قبل الكسيوس، وأنه يساعد الصليبيين، فقررت الاستسلام[١]، ومما زاد من عزم الحامية على الإستسلام الهجوم الأخير الذي قام به الصليبيون على البرج، حيث أقام أحد اللومبارديين آلة ضخمة، واختبأ بداخلها مع عدد من الرجال، وأخذوا يهدمون السور حتى فتحوا فيه فجوة كبيرة أدت في النهاية إلى تصدع البرج وانهياره، مما أفزع سكان المدينة خاصة بعد القبض على زوجة السلطان قليج أرسلان الأول وهي تحاول الهرب[٢]، وعندئذ استغل القائد البيزنطي بوتوميتس Boutoumites هذه الفرصة وعرض على الحامية مرة أخرى وعود الكسيوس بالأمان، فوافقت وتمت إجراءات استسلام نيقية للإمبراطور البيزنطي[٣].

هكذا استسلمت حامية نيقية بعد حصار استمر أكثر من ٧ أسابيع عانى الصليبيون خلاله معاناة شديدة، فبالإضافة إلى تحصينات المدينة التي وقفت عقبة كئود حيرت الصليبيين، كانت هناك مقاومة حاميتها المستمرة التي لم تترك أمام الصليبيين بابًا إلا وأغلقته، أو وسيلة إلا واتبعتها في سبيل التصدي للحصار مما كبد الصليبيين العديد من الخسائر التي جعلتهم يقلقون على مصير حملتهم، وقد عبر وليم الصوري عن مقاومة أفرادها بقوله: «إنهم راحوا يقابلون الحيلة بالحيلة، ويواجهون القوة بقوة مثلها، وأظهروا روحًا قتالية لا تقل عما كانت عند الصليبيين، وحاربوا بكل ما يملكون، وجاهدوا كأنهم رجل واحد...، وتكاتفوا في رد العدو، وتفادي الأهوال المنصبة عليهم»[٤].

---

(١) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٦؛أنا كومنينا، الالكسياد، ص٣٩.

Munro, Crusaders, p. 45.

(٢) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢١٤-٢١٥.

France, Victory, p. 164؛ Krey, Frist Crusade, p. 106.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول مفاوضات استسلام نيقية:

أنا كومنينا، الالكسياد، ص٤٠؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٧٠.

(٤) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢١٢.

France, Victory, p. 164.

فضلاً عن أن الصليبيين قد عانوا من النقص الشديد في الغذاء فيذكر المؤرخ المجهول، أن الكثيرين منهم ماتوا جوعًا، وأيضًا قتل الكثير منهم أثناء الهجوم على المدينة، أو الاشتباك مع السلاجقة، وكان من هؤلاء بلدوين جلدريان Baldwin Galderin، ووليم كونت فوريز William Count of Forez، وآخرون غيرهم(١).

وتتضح خسائر الصليبيين في الأرواح من خطاب أرسله القادة الصليبيون إلى الغرب الأوربي، ذكروا فيه أنهم فقدوا ١٠ آلاف شخص أثناء الحصار والقتال حول نيقية مما كان له أثر كبير على الروح المعنوية للصليبيين بسبب قتل إخوانهم(٢).

ولم يلبث أن واجه الصليبيون صعوبة جديدة -بعد رحيلهم من نيقية-بدأت مقدمة الجيش في الرحيل من المدينة في ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧م، ذلك أن المرحلة التالية من سيرهم كانت شديدة الخطورة فإذا كانوا حتى الآن لم يلتقوا مع السلاجقة في معركة حاسمة فقد كانت ضورورليوم هي هذه المعركة، فبعد سقوط نيقية-عاصمة سلاجقة الروم- عزم قليج أرسلان الأول على الانتقام من الصليبيين، فعقد الصلح مع الدانشمنديين أعدائه السابقين(٣)، ونجح في إقناعهم بتكوين جبهة متحدة ضد العدو الصليبي، وحشد جيشًا ضخمًا ضم إليه، كمشتكين الدانشمندي حاكم سيواس، والأمير حسن أمير كبادوكيا(٤) وعزموا جميعًا على قتال الصليبيين(٥).

---

(١) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٧؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٠٧.
Cowdrey, H.E.J., "Martyrdom and the Frist Crusade", in: Edbury,P.W., (ed), Crusade and Settlement, (London 1985), p. 151.
(2)France, Victory, pp. 131-132, 140.

(٣) شكلت علاقة الدانشمنديين مع سلاجقة الروم حلقة مهمة من تاريخهم السياسي، فتراوحت بين السلم تارة والحرب تارة أخرى، حيث كان يطمع كل طرف في الإستيلاء على ممتلكات الطرف الآخر.
لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين الطرفين:
علي المحيميد، الدانشمنديون، ص١٠٣-١٣٠.

(٤) يرى كاهن أن الأمير حسن هو بولداجي أحد الأمراء السلاجقة في الأناضول، ولكن هذا الأمير هو حسن بن أيوب، أحد قواد كمشتكين، ولقي مصرعه في أحد المعارك ضد الصليبين ودفن في توقات.
علي المحيميد، الدانسمنديون، ص١٧، ٣٩-٤٠.

(٥) زبيدة عطا، بلاد الترك، ص٧٥؛ رايس، السلاجقة، ص٥٩؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٧٨.

وكمن جيش السلطان السلجوقي وحلفاؤه للصليبيين في الممرات المؤدية إلى سهل ضورورليوم حيث كان السلطان يراقب تحركات الجيش، وأدرك أنه سيمر بهذا الطريق، واختار هذه الممرات بالذات حيث يمكنه فيها نصب الكمائن لهذه الفرقة الصليبية المنفصلة[١]، والقضاء عليها في ظل هذه الظروف المناسبة وقبل أن تصل القوة الرئيسية إليها[٢].

ففي اليوم الثالث من رحيل الجيش من مدينة نيقية دخلت مقدمة الجيش الصليبي هذه الممرات، وفي صباح اليوم التالي-١ يوليو- اندفع قليج أرسلان الأول وحلفاؤه نحوها، فأمر بوهيموند النورماني رجاله بإقامة المعسكر، وتحدث إلى قادته طالبًا منهم الإستعداد لخوض معركة شاقة، حثهم فيها على الشجاعة والصمود، وفي نفس الوقت أرسل إلى القوة الرئيسية للجيش لتأتي لنجدته على جناح السرعة، إلا أن السلطان السلجوقي وحلفاءه قاموا بمهاجمة هذه الفرقة وتطويقها من جميع الجهات، فكانت تأتي كل فرقة وتطلق سهامها وتنسحب بسرعة فتأتي الأخرى وتقوم بنفس الدور وهكذا، مما أفزع الصليبيين وأنهك قواهم[٣].

لقد صُدم الصليبيون في هذه المعركة لأول مرة بخطط السلاجقة في القتال والتي أدهشتهم وأصابتهم بالفزع، ولم تترك لهم أي فرصة لالتقاط أنفاسهم أو التفكير في كيفية التعامل مع هذا الأسلوب الجديد من القتال بالنسبة لهم، الذي عبر عنه فوشيه الشارتري بقوله: «إن أساليب الحرب هذه لم تكن معروفة لدينا»[٤]، فكان السلاجقة

=

Holt, P.M., The Age of the Crusades, The Near East From the Eleventh Century to 1517, (New York 1986), p. 169.

(١) بعد رحيل الجيش الصليبي من نيقية انقسم إلى مجموعتين، المقدمة ويقودها بوهيموند النورماني، وتانكرد، وروبرت دوق نورمنديا، وستيفن كونت بلوا، والقوة الرئيسية ويقودها روبرت كونت فلاندرز، وهيو كونت فيرماندوا، وجودفري دي بوايون، وريموند كونت تولوز، وقد وصلت المقدمة أولًا إلى ضورورليوم.

Runciman, Frist Crusade, p. 292؛ France, Victory, p. 169.

(2)Payne, Crusades, pp. 70-71. France, Victory, pp. 174, 182؛

(٣) لمزيد من التفاصيل حول أحداث هذه المعركة.

المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٨، ٣٩؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص١١٢-١١٣؛ ريموناجيل، تاريخ الفرنجة، ص٧٩.

(٤) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٤٨.

=

يعتمدون في قتالهم على خفة أسلحتهم، وسرعة خيولهم في الحركة، وتبدأ المعركة بمحاولة عزل العدو وتطويقه مع إلقاء وابل من السهام عليه، ثم الانقضاض عليه بعد ذلك من كل الاتجاهات، ومحاصرته في مسافة ضيقة للغاية، وإذا حاول أن يفلت من هذا التطويق أو القيام بالهجوم، يسرع السلاجقة بالاختفاء، وفي بعض الأحيان يقوم السلاجقة بالتظاهر بالانسحاب لإيقاع العدو في كمين نصبوه له[١]، وكان السلاجقة يهدفون من وراء هذا الأسلوب في القتال إلى إرباك العدو، وتحطيم تشكيله وزعزعة معنوياته وإضعافه، وعند ذلك يشتبكون معه في معركة بالسيوف والحراب[٢].

ورسم شهود العيان صورة واضحة لهذا الأسلوب السلجوقي في القتال في معركة ضوروليوم، فتحدث المؤرخ المجهول عن تطويق السلاجقة للمقدمة[٣]، وشبه فوشيه الشارتري وابل السهام الذي انهال على الجيش الصليبي وأدى إلى إنهاك قواه بالسحب[٤] مما أصاب الصليبيون بالرعب، وعبر عن ذلك فوشيه الشارتري بقوله: «كنا نتجمع مع بعضنا كما تتجمع الأغنام ترتعد فرائصنا ويملؤنا الخوف ويحيطنا العدو من جميع الجهات، حتى إننا لم نقدر على التحرك في أي اتجاه»[٥].

ومما زاد من فزع الصليبيين العدد الضخم للسلاجقة الذين وصفهم المؤرخ المجهول بقوله: «إنهم -السلاجقة- غطوا كل المرتفعات والجبال والسهول سواء داخل المدينة أو خارجها»[٦].

ونتيجة لذلك كله فقد الصليبيون الثقة في قدرتهم على الصمود وقرروا الاستشهاد عند الضرورة، وكادت المعركة تنتهي لصالح السلاجقة لولا وصول القوة الرئيسية

=

(France, Victory, p. 182).

(1)France, Victory, p. 158. Wise, Wars, pp. 170-172؛

(2)Hamilton, Crusades, p. 7.France, Victory, pp. 148-149؛

(٣) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٣٩؛ (بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص١١٢).

(٤) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٤٨.

(Krey, Frist Crusade, p. 117).

(٥) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٤٩.

(Krey, Frist Crusade, p. 117).

(٦) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٠-٤١.

للجيش الصليبي التي جاءت إلى المقدمة عند الظهر وهي على وشك الاستسلام، وأدى قدومها إلى قلب ميزان المعركة رأسًا على عقب لصالح الصليبيين، إذ زادت حماستهم للقتال وعزموا على الثأر لما وقع لهم، فاشتبكوا في قتال عنيف مع السلاجقة الذين لم يلبثوا أن انسحبوا من ساحة القتال(١).

والأمر الملفت للنظر أنه بالرغم من انتصار الصليبيين في معركة ضورولیوم إلا أنها كانت تجربة قاسية وبغيضة لهم، كابدوا فيها قسوة السلاجقة وأعياهم أسلوبهم في القتال(٢)، ولقى عدد كبير منهم فيها مصرعه، إذ فقد الصليبيون المنتصرون في هذه المعركة ٤ آلاف، بينما فقد السلاجقة المنهزمون ٣ آلاف، وكان من بين الصليبيين الذين لقوا مصرعهم وليم أخو تانكرد وجودفري صاحب مونت سكبيوزو Monte Scabioso وروبرت كونت باريس Robert Count of Paris والكثير غيرهم(٣).

وأخذ الصليبيون منذ ذلك اليوم ينظرون للسلاجقة بعين الاعتبار ويقدرون مهارتهم القتالية، واعترفوا بتفوقهم في فنون الحرب والقتال، فقال المؤرخ المجهول عنهم: **«لو أنهم آمنوا إيمانًا تامًابالمسيح واتبعوا النصرانية المقدسة... لما وجدنا شخصًا يمكن أن يساويهم في القوة والشجاعة وفن القتال»(٤).**

على أي حال إذا كانت معركة ضورولیوم قد انتهت بهزيمة وانسحاب السلاجقة إلى داخل آسيا الصغرى، فإن هذا لا يعني أنهم قد استسلموا، أو انتهت مقاومتهم حقيقة إنه من الآن فصاعدًا، لم تشر المصادر إلى أن الصليبيين خاضوا قتالًا عنيفًا مع السلاجقة كالذي وقع في ضورولیوم، لكن رغم ذلك ظل السلاجقة يمثلون خطرًا على الزحف الصليبي في آسيا الصغرى، وحاولوا بكل الطرق إعاقته، وهذا ما أكده ألبرت

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٢٦.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٣١؛ تيسير بن موسى، غزوات الفرنج، ص٦٩؛ عبد الغني إبراهيم رمضان، السلاجقة والصليبيون من وقعة ملازجرد ٤٦٥هـ/ ١٠٧١م حتى سقوط الرها ٥٣٩هـ-١١٤٤م، رسالة دكتوراه غير منشورة- كلية الآداب- جامعة القاهرة، ١٩٥٨، ص٣٨.

(2)France, Victory, pp. 181-182.

(٣) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤١؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٧٧-٢٧٨؛ عبد الغني عبد العاطي، السياسة الشرقية، ص٢٠٩.

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤١-٤٢؛ (بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص١١٤-١١٥).

دي إكس بقوله: «إن العدو (السلاجقة) ظل يمثل خطرًا علينا، وفي الغالب كان يضعنا في موقف حرج نضطر فيه إلى الدفاع عن أنفسنا بضراوة»[١]، أما فوشيه الشارتري فيقول:«إنه بعد هذه المعركة (ضورولیوم) قد تابعنا رحلتنا بحذر شديد»[٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن معاناة الصليبيين لم تقتصر فقط في هذه المرحلة على الهجوم السلجوقي ومحاولة إعاقة تقدم الصليبيين، وإنما عانى الصليبيون أيضًا من الظروف الطبيعية والمناخية لإقليم آسيا الصغرى[٣]، فقاسوا من شدة الحرارة طوال عبورهم هذا الإقليم بصفة عامة وفي هذه المنطقة بصفة خاصة.

فلو عدنا قليلاً للوراء لوجدنا أن البابا أوربان الثاني قد حدد موعد رحيل الصليبيين في **١٥** أغسطس سنة **١٠٩٦**م، ورأى أن هذا الوقت مناسبًا لتوافر المؤن عبر الطريق والوصول إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام في وقت أقل حرارة، إلا أن ذلك لم يحدث، حيث تأخرإنطلاق الصليبيين من ناحية، كما أنهم تعرضوا لعدة صعوبات في الطريق أدت إلى تأخر وصولهم إلى الشرق من ناحية أخرى، ولهذا عندما جاء الصليبيون إلى آسيا الصغرى كانوا في صيف العام التالي حيث الحرارة الشديدة في هذه الصحراوات القاحلة[٤]، ومما زاد من إحساسهم بالحرارة تلك الألبسة والدروع الثقيلة التي كان يرتديها أو يحملها الصليبيون، والتي أدت أيضًا إلى إعاقة سيرهم، وإحساسهم بالتعب والإرهاق[٥].

وفي ظل هذه الظروف القاسية لم يجد الصليبيون الماء ليروي عطشهم، ويخفف من شدة الحرارة عليهم، فالآبار قد طمرها أو جففها السلاجقة، وصهاريج المياه التي

---

(١) نقلاً عن:

France, Victory, p. 148.

(٢) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٥٠.

(Krey, Frist Crusade, p. 119).

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١٣١.

(4)Munro, Crusaders, p. 39؛ France, Victory, p. 186.

(٥) تسيير بن موسى، غزوات الفرنج، ص٧٠.

- لمزيد من التفاصيل حول ألبسة وأسلحة الصليبيين:

Wise, Wars, pp. 113-116.

وجدوها كانت مدمرة، الأمر الذي أدى إلى زيادة معاناتهم، وذكر ألبرت دي إكس: أن الصليبيين في اليوم الرابع من رحيلهم من ضورورليوم قد عانوا من عطش شديد أدى إلى هلاك ٥٠٠ شخص[١]، وقيل: إن الصليبيين كانوا من شدة عطشهم يسيرون وأفواههم مفتوحة عسى أن تصادفهم نسمة هواء ترطب ألسنتهم الجافة، وإذا كان الصليبيون قد وجدوا أحد الأنهار بعد طول سيرهم واندفعوا في لهفة إليه ليرووا عطشهم إلا أنه كان نهر الموت بالنسبة لهم، حيث أن إفراطهم في الشراب، أدى إلى موت الكثير منهم[٢].

إضافة إلى ما سبق فإن الصليبيين قد عانوا في هذه المرحلة من النقص الشديد في الغذاء، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ المجهول: إنهم -الصليبيون- لم يجدوا في هذه الصحراء سوى أشجار الشوك التي يقتلعونها ويطحنونها بأيديهم ليتغذوا عليها في هذه الرحلة المزعجة[٣]، ونتيجة لهذا عانى كبار السن والنساء الأمرين، وسقط منهم الكثير مريضًا، كذلك أصاب المرض ريموند كونت تولوز وكاد أن يودي بحياته، وأصيب جودفري دي بوايون أثناء صيده أحد الحيوانات البرية الذي كان يطمع في أن يخفف به حدة جوعه[٤].

وكذلك واجهت دواب الصليبيين مشكلة نقص العلف، الأمر الذي أدى إلى موت الكثير من الخيول وحيوانات الحمل، مما اضطر العديد من الفرسان إلى السير على الأقدام أو ركوب الثيران واستخدمت الماعز والكلاب لحمل الأمتعة[٥]، وعلق فوشيه

---

(١) نقلاً عن:

France, Victory, p.137.

(وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٢٩؛ حسن عبد الوهاب حسين، "أثر العوامل الجغرافية على الحروب الصليبية منذ الحملة الصليبية الأولى حتى معركة حطين"، ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، (الإسكندرية ١٩٩٧)، ص٢٩٠).

(٢) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٢٩-٢٣٠.

Payne, Crusades, p. 72؛Munro, Crusaders, p. 47.

(٣) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٣.

(Krey, Frist Crusade, p. 119؛ Munro, Crusaders, p. 47).

(٤) ريموناجيل، تاريخ الفرنجة، ص٧٩.

Payne, Crusades, p. 72؛ Runciman, Frist Crusade, p. 295.

(٥) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٣-٤٤.

=

الشارتري على ذلك بقوله: «لقد كنت تضحك، أو ربما كنت تبكي رثاء لو أنك رأيت كثيرًا من هؤلاء الناس ممن لم تتوافر لهم الدواب التي هلك الكثير منها وقد حملوا حاجياتهم على كبش أو جدي أو خنزير أو كلب... واضطر الفرسان المسلحون أن يركبوا ظهور الثيران في بعض الأحيان[١]، فضلاً عن موت الكثير من الحيوانات الأليفة والطيور والصقور التي أحضرها النبلاء معهم»[٢].

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال هام وهو: لماذا لم يحاول الصليبيون توفير طريقة للحصول على المؤن بدلًا من هذه المعاناة الشديدة خاصة مع معرفتهم بأنهم سوف يمرون في أراضي أعداء لهم؟.

تكمن الإجابة على هذا السؤال في أن الصليبيين في هذه الفترة لم يكن لديهم نظام محدد ومنظم لترتيبات المؤن، وإنما كانوا يعتمدون بصفة أساسية على المناطق التي سيمرون بها[٣]، وكانت هذه مجازفة كبيرة خاصة إذا كانت هذه الأراضي جرداء أو أراضي أعداء لهم، مثلما حدث مع السلاجقة، الأمر الذي كلفهم الكثير، إذ قام السلاجقة بعد هزيمتهم في ضورولیوم وانسحابهم بتدمير وحرق المراعي والمحاصيل والحبوب وإخفاء الماشية في الجبال، ودمروا أمام الصليبيين كل وسيلة من شأنها أن تمدهم بالمؤن، مما ضاعف من معاناة الصليبيين في آسيا الصغرى[٤].

ولكن ما هو دور المرشدين البيزنطيين؟، ولماذا تركوا الجيش يعاني كل هذه

=

Payne, Crusades, p. 72؛France, Victory, pp. 189-190؛ Munro, Crusaders, p. 47.

(١) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٥١.

(Krey, Frist Crusade, p. 119).

(٢) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٣٠.

Munro, Crusaders, p.47.

(3)Oman, Art of War, I, p. 240؛ Bell, K., Mediaeval Europe 1095-1254؛ (Oxford 1932), p. 37.

(٤) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٣.

Kafesoglu, Seljuks, p. 68؛ Oman, Art of War, I, p. 251؛ Krey, Frist Crusade, p. 119؛ Munro, Crusaders, p. 47.

عبد الغني رمضان، السلاجقة والصليبيون، ص٣٩.

المعاناة؟، ألم يكن دورهم إرشاد الصليبيين في آسيا الصغرى إلى أفضل الطرق إلى بلاد الشام وإبعادهم عن كل طريق من شأنه أن يعوق حركتهم أو يرهقهم؟.

الحق يقال إن المسئولية في هذه المعاناة لا تقع على هؤلاء المرشدين، فقد اعتقدوا أن الطرق لازالت على حالتها الأولى منذ أن كانت تحت السيطرة البيزنطية آمنة وصالحة للسير ولم يدر بخلدهم أو يتوقعوا ما أصابها من تدمير وتخريب، فبعد ثلاثين عامًا من الفوضى السياسية والسيطرة السلجوقية فإن هذه الطرق قد أصابها الدمار، وخربت حقولها، وجفت آبارها، وتحطمت جسورها، وما بقى منها بحالة جيدة دمره السلاجقة أمام الصليبيين، ومن هنا كانت تلك المعاناة الشديدة التي تكبدها الصليبيون(١).

بعد هذه الرحلة المرهقة وصل الصليبيون إلى مدينة قونية، التي رحل عنها سكانها، فاستولوا عليها بسهولة وأقاموا فيها لمدة يومين وحصلوا منها على ما كانوا يحتاجون إليه من إمدادات(٢)، إلا أن الصليبيين لم يهنأوا بهذا الانتصار؛ ذلك لأنهم لم يلبثوا أن تعرضوا للمقاومة السلجوقية عند مدينة هرقلة، فتصدى لهم جيش ضخم (بلغ حوالي ٨٠ ألف) بقيادة الأمير كمشتكين الدانشمندي والأمير حسن، ووقع قتال عنيف بين الطرفين، أظهر فيه كلاهما الثبات والصبر، لكنه انتهى بانسحاب السلاجقة ودخول الصليبيين هرقلة، ويبدو أن هذين الأميرين هدفا من وراء هذه المحاولة منع الصليبيين من السير عبر أملاكهما والاتجاه مباشرة إلى جبال طوروس ومنها إلى البحر المتوسط لكنهما لم ينجحا في ذلك(٣).

فضل القسم الرئيسي من الجيش الصليبي بعد هرقلة السير بطريق قيصرية إلى أنطاكية عن السير بطريق أبواب قليقية الذي اتخذه تانكرد وبلدوين؛ وذلك لأن قليقية كانت خاضعة للسيطرة السلجوقية، هذا بالإضافة إلى صعوبة طريق أبواب قليقية

---

(1)France, Victory, p. 189.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٨٢.

(٢) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٤؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص١٦.

Krey, Frist Crusade, p. 119.

(٣) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٤؛بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص١١٦؛ أنا كومنينا، الالكسياد، ص٤٥-٤٦.

France, Victory, p. 189؛Runciman, Frist Crusade, p. 295.

وسوء مناخه في هذا الوقت من العام، بالرغم من قصره، فالمسافة من هرقلة إلى أنطاكية بهذا الطريق تبلغ ٣٥٠ كم، بينما تبلغ هذه المسافة بطريق قيصرية ٦٥٠كم[١]. (انظر الخريطة رقم ٢).

وإذا كان الصليبيون قد اتخذوا طريق قيصرية تجنبًا للخطر السلجوقي، إلا أنهم لم يفلحوا في الهروب من الهجوم السلجوقي من ناحية، كما أنهم تعرضوا لصعوبة السير في الطريق بعد كوكسن Coxen[٢] من ناحية أخرى، فقد تصدى لهم الأمير حسن عند قرية تدعى أغوستربوليس Augustopolis[٣] لكنه عجز عن إيقاف زحفهم[٤]، وبالرغم من حصار السلاجقة لمدينة كومانا إلا أن الصليبيين استطاعوا الإستيلاء عليها بمساعدة سكانها الأرمن، وكذلك مدينة كوكسن التي زود الأرمن فيها الجيش الصليبي بكل ما احتاج إليه من مواد غذائية لتساعده في رحلته التالية عبر جبال طوروس[٥].

على أي حال إذا كان الصليبيون قد اعتقدوا أن الحظ قد ابتسم لهم بمساعدة الأرمن، وأن معاناتهم انتهت عند هذا الحد، فإنهم قد أخطأوا في ذلك؛ لأن المسافة الممتدة من كوكسن إلى مرعش (٨٠ كم)، كانت كل خطوة فيها رحلة عذاب بالنسبة لهم، إذ كان عليهم اجتياز جبال اللكام (طوروس الأمامية) الوعرة الشديدة الانحدار والضيق، ومما زاد من صعوبة سيرهم في هذه المنطقة الجبلية سقوط الأمطار، الأمر الذي أدى إلى انزلاق الكثير من الخيول وحيوانات الحمل، وهنا جاءت أسلحتهم

---

(1)France, Victory, p. 189.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٨٥.

(٢) كوكسن هي "جكسن الحالية"، تقع جنوب كومانا، وهي المحطة التالية التي وصل إليها الصليبيين بعد كومانا.

علي المحيميد، الدانشمنديون، ص١٧٥.

(٣) أغوستوبوليس، هي قيرشهر البيزنطية تقع على بعد ٨٠ ميلا غرب مدينة قيصرية.

لسترنج، بلدان الخلافة، ص١٧٩.

(٤) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٤٩؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٥) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٥-٤٦؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص١١٨.

Forse, Armenians, p. 14؛Runciman, Frist Crusade, p. 297.

لتعوق سيرهم في هذه الجبال، مما دفع البعض إلى بيعها، بينما تخلص منها البعض الآخر بتركها على جانبي الطريق[1]، ولهذا كانت خسارة الصليبيين في هذه المنطقة كبيرة، لدرجة دفعت بعض الباحثين إلى القول بأن الصليبيين فقدوا في هذه المرحلة أكثر مما فقدوا في أي معركة مع السلاجقة أو أثناء سيرهم عبر آسيا الصغرى[2].

مما سبق يمكن القول بأن آسيا الصغرى كانت مرحلة شاقة من سير صليبي الحملة الصليبية الأولى، عانوا خلالها من الحرارة والجوع والعطش والانحدار الشديد لممرات الجبال، فضلاً عن هجوم السلاجقة عليهم وما ترتب على ذلك من آثار بالغة السوء، فكانت آسيا الصغرى بالنسبة لهم إقليمًا موحشًا عانوا خلاله العديد من الصعاب، وجاءت رحلتهم خلاله مصحوبة بخسارة كبيرة في الأرواح[3].

القضاء على حملة سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) في آسيا الصغرى:

بعد الصعوبات التي تعرضت لها الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى، لم تلبث أن وطأت أراضيها حملة صليبية أخرى سنة ١١٠١م، لتواجه في هذه المرة قدرًا مشئومًا ومصيرًا حاسمًا... فإذا كانت الحملة الصليبية الأولى بعد كل خسائرها في هذا الإقليم استطاعت الوصول إلى بلاد الشام، فإن هذه الحملة قد قُضِي عليها ولفظت أنفاسها الأخيرة على أراضي آسيا الصغرى.

فإذا كان قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى آسيا الصغرى، قد دفع السلاجقة إلى التخلي عن تنازعهم والتعاون ضد الخطر الصليبي-كما سبق ذكره-ذلك التعاون الذي أعيى الصليبيين في معركة ضورولیوم، فإن وصول هذه الحملة الجديدة قد أدى إلى إحياء وتقوية روابط التعاون والوحدة بين السلاجقة في آسيا الصغرى، خاصة بعدما أدركوا مدى قوة وخطورة العدو الصليبي، ورأوا ضرورة الاستعداد لمواجهته، فالحرب معه حربًا مصيرية إما البقاء وإما الفناء، وهكذا وجدت حملة سنة ١١٠١م

---

(١) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص٤٧-٤٨؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة، ص١١٩.
France, Victory, p. 189؛Krey, Frist Crusade, p. 124.

ماير (هانس ابرهارد)، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة/ عماد الدين غانم، (ليبيا ١٩٩٠)، ص٨٢.

(2)Runciman, Frist Crusade, p. 298.Payne, Crusades, p. 75؛

(3)Oman, Art of War, I, p. 240., France, Victory, pp. 3, 159؛

السلاجقة في آسيا الصغرى وهم في قمة غليانهم وتجتاحهم رغبة عارمة في الثأر من هذا العدو الذي استطاع هزيمتهم وطردهم من أراضيهم، ومن ثم فإن أي محاولة لعبور المنطقة السلجوقية في آسيا الصغرى-في هذه الفترة- كانت ستنتهي بمذبحة مروعة، وهذا ما حدث بالفعل لهذه الحملة[1]، وكانت أول هذه المذابح من مصير الجيش اللومباردي.

*** هزيمة الجيش اللومباردي في آسيا الصغرى:**

لقد رفض اللومبارديون نصيحة الكسيوس كومنين، بالسير في طريق الحملة الصليبية الأولى-كما سبق ذكره- مما أدى إلى انزعاج ريموند كونت تولوز وستيفن كونت بلوا والقائد البيزنطي تيستاس وحاولوا إثناءهم عن هذه الفكرة بكل وسيلة، فتارة يذكرونهم بهدف الحملة، وهو تقديم يد العون والمساعدة للصليبيين في الشرق، وتارة أخرى يشرحون لهم خطورة هذا السير الطويل خلال فصل الصيف في منطقة يسيطر عليها أعداؤهم، حيث كان عليهم السير لمسافة تبعد عن مضيق البسفور حوالي ١٠٠٠كم أقصى الشمال الشرقي للوصول إلى نيكسار، حيث يوجد بوهيموند، على النقيض من طريق الحملة الصليبية الأولى، الذي يجتاز منطقة استولى البيزنطيون على معظمها، مما سيوفر للصليبيين المرور الآمن، وما يحتاجون إليه من مؤن أثناء رحلتهم، وبذلك يصلون إلى بلاد الشام دون عناء وبكامل أعدادهم[2].

بيد أن اللومبارديين صموا آذانهم عن هذه التحذيرات وأعمتهم الرغبة في تحرير بوهيموند عن هذه المخاطر المحتومة، ويبدو أن ما شجعهم على ذلك هو استهانتهم بقوة المسلمين، بعد أن وصلت أخبار الانتصار عليهم في الحملة الصليبية الأولى إلى

---

(1)Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 227؛ Holt, Age of The Crusades, p. 169؛ Elisseeff, N. "The Reaction of The Syrian Muslims After The Foundation of Frist Latin Kingdom of Jerusalem", in: Shatzmiller, M. (ed), Crusaders and Muslims in Twelfth Century Syria, (New York 1993), p. 163.

مرسي الشيخ، الإمبراطورية البيزنطية، ص٣٣٨.

(2)Grousset, Croisades, I, p. 324؛Oldenbourg, Crusades, pp. 207-208؛ Rousset, Croisades, p. 169.

الغرب بصورة مبالغ فيها[١].

وأمام هذا الإصرار من اللومبارديين الذين كانوا يشكلون أكثر من نصف الجيش الصليبي، وتهديدهم بالحرب لم يسع ريموند وبقية القادة إلا موافقتهم، ولم يكن يدري هؤلاء أنهم بقبولهم هذه الفكرة الطائشة، واتخاذهم هذا الطريق قد نبشوا قبورهم بأيديهم[٢].

فبعد أن عبر اللومبارديون البسفور في **٢١** إبريل عسكروا في نيقوميديا ينتظرون وصول بقية الفرق الصليبية (الفرنسية والألمانية)، التي سرعان ما انضمت إليهم، وغادرت هذه الجموع نيقوميديا وأخذت طريقها إلى أنقرة، وكان هذا الطريق يمر بمنطقة تحت السيطرة البيزنطية، ومن ثم لم يشتك الصليبيون في هذه الفترة من نقص في المؤن حيث أمدهم البيزنطيون بكل ما احتاجوا إليه، إلا أن الطريق إلى أنقرة كان يمر بمنطقة جبلية ووديانا عميقة عانى اللومبارديون من السير خلالها[٣]، إلا أنهم تمكنوا من الوصول إلى أنقرة، التي كانت من أملاك قليج أرسلان الأول في **٢٣** يونيو، واستطاعوا السيطرة عليها بعد معركة عنيفة مع السلاجقة[٤].

من أنقرة اتجه اللومبارديون صوب الشمال الشرقي إلى جانحرا Gangra[٥]؛ ليتخذوا الطريق الرئيسي الذي يمر عبر نهر هاليس إلى أماسيا ومنها إلى نيكسار هدف

---

(١) مرسي الشيخ، الإمبراطورية البيزنطية، ص**٣٣٧**.

(2)Cate, Crusade of 1101, p. 354؛ Oldenbourg, Crusades, p. 208؛ Brundage,Errant Crusader, p. 392.

حسن عبد الوهاب، أثر العوامل الجغرافية على الحروب الصليبية، ص**٢٩٣**.

(3)Albert d'Aix, Historia, pp. 562-564؛ Orderic Vitalis, Historia, 5, pp.325-326؛Richard, Croisades, p. 85؛ Archer, Crusades, p. 104؛ Oldenbourg, Crusades, 208.

(٤) أنا كومنينا، الالكسياد، ص**٦٢**؛ ابن الأثير، الكامل، ج**٩**، ص**٢٩**.

Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 226؛ Grousset, Croisades, I, p. 325.

(**٥**) جانجرا، تقع على بعد خمسين ميلا من كستمون على أحد روافد نهر الهاليس وتشرف على الطرق الرئيسية من جلاتيا إلى البحر الأسود، وكانت عاصمة لمنطقة بافلاجونيا.

O.D.B., 2, p. 821.

لسترنج، بلدان الخلافة، ص**١٩١**.

حملتهم، إلا أنهم منذ خروجهم من أنقرة وحتى وصولهم إلى جانجرا وطول هذه الفترة قد عانوا من نقص المؤن، حيث اتبع قليج أرسلان الأول سياسة السلاجقة المألوفة منذ الحملة الصليبية الأولى، وقام بتدمير وتخريب البلاد أمامهم بهدف حرمان الجيش اللومباردي من الحصول على أي مواد غذائية ومن ثم إضعافه وإنهاكه، وعند ذلك يصبح من السهل القضاء عليه(١).

يضاف إلى ذلك أن كمشتكين الدانشمندي أخذ في الاستعداد لمواجهة تحدي الصليبيين واتجاههم إلى عقر داره، فأرسل يطلب المساعدة من قليج أرسلان الأول الذي سرعان ما استجاب له لمواجهة هذا الخطر، وأرسل أيضًا يطلب مساعدة رضوان بن تتش صاحب حلب، الذي لم يتردد هو الآخر في تلبية طلبه، وكيف لا يستجيب لطلبه، وسبب اتجاه اللومبارديين إلى أملاك الدانشمنديين هو تحرير بوهيموند الذي شكل خطرًا كبيرًا على مدينة حلب(٢).

وصل اللومبارديون إلى جانجرا في بداية شهر يوليو، وبذلوا جهدًا كبيرًا في الاستيلاء عليها، لكنهم فشلوا في ذلك لقوة تحصيناتها ومناعتها، ودفاع السلاجقة الشديد عنها، هذا بالإضافة إلى أن المدينة كان لديها من المؤن ما يكفي لمقاومة حصار طويل، فرحل اللومبارديون عنها يجرون أذيال الخيبة(٣)، وكان هذا الفشل هو أول فشل واجه اللومبارديين، وكان له أثر كبير في رفع روح المسلمين المعنوية الأمر الذي شجعهم على الإصرار على مقاومة اللمبارديين بعد أن خبروا ضعفهم، فأخذوا منذ هذه

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٣.

(2)Oldenbourg, Crusades, p. 210؛Grousset, Croisades, I, p. 326؛

رنسيمان،الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٣؛ علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص٤٤.

- بعد أن استقرت أوضاع بوهيموند في أنطاكية، أخذ يعمل على التوسع على حساب المسلمين، وكانت إمارة حلب هي المنافس له في شمال الشام، فقام بمهاجمتها، واستولى على العديد من المواقع الهامة بها، ثم اشتبك في معركة شديدة مع رضوان صاحب حلب، وتمكن من هزيمته والإستيلاء على عدة حصون غرب حلب واستعد لحصارها وكان من الممكن أن تسقط في يده لولا تدخل القدر بأسر كمشتكين الدانشمندي لبوهيموند.

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٧-١٣٨؛حسين عطية، إمارة أنطاكية، ص١٢٦-١٢٧.

(3)Albert d'Aix, Historia, p. 564؛ Orderic Vitalis, Historia, 5, 33؛Cate, Crusade of 1101, p. 355؛ Richard, Croisades, p. 85.

اللحظة في تعقب الجيش الصليبي والهجوم عليه باستمرار؛ لإضعافه وتبديد قوته قبل خوض المعركة الفاصلة معه[١].

بالإضافة إلى ذلك فقد عانى اللومبارديون في تلك المرحلة من حرارة شهر يوليو اللافحة في آسيا الصغرى، ومن الجوع الشديد بعد أن تناقصت مؤنهم بشكل كبير، وأمام هذه المعاناة وخوفًا من أن يكبدهم السلاجقة خسائرًا أخرى وقع اللومبارديون- الذين كانوا السبب في هذه المعاناة- في حيرة من أمرهم، ولم يدروا ماذا يفعلون، عند ذلك اضطروا إلى الموافقة على رأي ريموند كونت تولوز بالاتجاه إلى كستمون ومنها إلى إحدى الموانئ البيزنطية على بحر بنطس، وطرح فكرة تحرير بوهيموند[٢].

إنه لأمر غريب حقًا أن يتخلى اللومبارديون عن هدفهم الأساسي الذي طالما دافعوا عنه، ورفضوا كل محاولة لإبعادهم عن تنفيذه، مما دفع بعض الباحثين إلى القول: بأن سيدهم لم يعد يسوع المسيح، وإنما أصبح السيد النورماني[٣]،ولكن الحالة السيئة التي وصل إليها اللومبارديون، وحجم المعاناة التي تكبدوها في هذه المرحلة هي التي جعلتهم يتخلون عن هذه الفكرة ويتجهون إلى كستمون.

على أي حال، إذا كان اللومبارديون قد اعتبروا أن اتجاههم إلى كستمون يعني إنقاذهم ونهاية لمعاناتهم، إلا أن ذلك لم يحدث، فلم تأت الرياح في رحلتهم هذه بما تشتهي السفن، حيث رأى الصليبيون الموت بأعينهم في كل خطوة إلى هناك، فسرعان ما وجدوا أنفسهم في صحراء جدباء، وقد اتهم ألبرت دي إكس ريموند كونت تولوز بأنه تعمد أن يقود الجيش إلى هذه المناطق الصحراوية الجافة بعد أن رشاة السلاجقة[٤].

ولكن هذا الرأي لا يوجد ما يؤكده خاصة وأن المصادر التي عالجت موضوع هذه الحملة لم تذكر أي شيء عن خيانة ريموند، فالمؤرخ إيكهارد لم يتهم ريموند بالخيانة

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 564؛ Cate, Crusade of 1101, p. 355؛ Grousset,Croisades, I, p. 325.

(2)Rousset, Croisades, p. 169.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٣؛ رايس، السلاجقة، ص٦٣.

(3)Oldenbourg, Crusades, p. 209.

(4)Albert d'Aix, Historia, p. (Cate, Crusade of 1101, p. 335).

رغم اتهامه الكسيوس بذلك، وجيبرت النوجاتي لم يذكر أي شيء في هذا الصدد، ويلصق متى الرهاوي تهمة الخيانة بالكسيوس، ولا يذكر أي شيء عن الأمير الصليبي، أما أوردريك فيتاليس، فيقول: بأنه ليس متأكدًا ما إذا كان ريموند كونت تولوز قاد الصليبيين إلى هذه الطرق جاهلاً أم متعمدًا[1].

يضاف إلى ذلك أن ريموند كان منذ البداية رافضًا الاتجاه إلى بلاد الدانشمند وحاول إقناع اللومبارديين بأكثر من طريقة للتخلي عن هذه الفكرة، لما ينطوي عليها من مخاطر أدركها بحكم خبرته في السير عبر آسيا الصغرى منذ الحملة الصليبية الأولى، كما أن سيرة هذا الأمير تؤكد استحالة قيام هذا الرجل الشديد التمسك بدينه بهذا العمل، فكيف يخون دينه وهو الذي حارب من أجله المسلمين في أسبانيا، وكان من القادة المشهورين في الحملة الصليبية الأولى هذا بالإضافة إلى عدائه للمسلمين أنفسهم في بلاد الشام[2]، فضلاً عن أن رفاقه الذين نجوا من الوقوع في أيدي السلاجقة لم يلصقوا به هذه التهمة، بل دافعوا عنه عندما قام تانكرد أمير أنطاكية بأسره، وتوسلوا إليه للإفراج عنه[3].

ولعل ما دفع ألبرت دي إكس إلى اتهام الأمير الصليبي هو تأثره الشديد بإبادة هذا الجيش الضخم، وضياع هذا الجهد المسيحي على أراضي آسيا الصغرى، فلم يجد كبش فداء سوى ريموند قائد هذا الجيش الذي سار به-دون قصد- في هذه الطرق، خاصة وأننا لم نجد في مصدره أي لوم للومبارديين لاتخاذهم الطريق إلى بلاد الدانشمند، فكان متعاطفًا معهم على الدوام.

وعلى ذلك يمكن القول بأن ريموند كونت تولوز لم يتعمد ترك المناطق العامرة والسير بالجيش اللومباردي في منطقة جدباء، خاصة عند المعرفة بأن هذه المنطقة كلها كما يقول جروسيه Grousset: كانت منطقة صحراوية وخالية من أي مظهر من مظاهر الحياة، وكان السلاجقة يدركون طبيعة وظروف هذه المنطقة، فاستغلوا مرور

---

(1)Ekkehard of Aura, Hierosolymita, pp. 30-31؛ Matthieu D'Edesse؛Chronique, p. 241؛Orderic Vitalis, Historia, 5, p. 335.

(٢) علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص٤٩-٥٠.

(3)Albert d'Aix, Historia, p. 582؛ Cate, Gay Crusader, pp. 519-520.

الجيش الصليبي فيها وفضلوا الهجوم عليه وهو يعاني الجوع والعطش والإرهاق[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الجيش اللومباردي لم يكد يخطو خطواته الأولى في تلك المنطقة القاحلة إلا ووجد سحب السهام تنطلق نحوه من كل الجهات، والكمائن تنصب له هنا وهناك، ومع استمرار تقدمه في هذه المنطقة ازداد عنف الهجوم السلجوقي عليه، مما أدى إلى وقوع العديد من الخسائر في الرجال والخيول، وأمام هذا الخطر المحدق قام قادة الجيش بتخصيص فرقة من الفرنسيين تعدادها ٧٠٠ جندي؛ لحماية المقدمة وأخرى لمباردية تماثلها في العدد لحماية المؤخرة[2]، ولكن هيهات أن يفت هذا من عضد السلاجقة الذين قرروا إبادة الجيش اللومباردي مهما كانت الظروف والذين بمجرد رؤيتهم لهذه الفرقة اندفعوا نحوها وهاجموها فلم يستطع الحماة اللومبارديون الصمود أمام هذا الهجوم السلجوقي العنيف، ففروا وقتل السلاجقة منهم ١٠٠٠ شخص[3].

بعد يوم واحد من هذا الهجوم وقبل أن تجف دموع اللومبارديين على قتل إخوانهم أو يفيقوا من هول الصدمة قامت فرقة من الجيش السلجوقي تتألف من ٧٠٠ جندي بمطاردة ريموند كونت تولوز في ممرات الجبال وأمطرته بوابل سهامها، وعندما أدرك الأمير الصليبي عجزه عن التصدي للسلاجقة الذين أخذت أعدادهم في التزايد بانضمام قوات جديدة إليهم، أرسل ريموند إلى باقي الجيش-كان يبعد عنه حوالي ٧ أميال- يطلب النجدة، وعندما جاءت إليه هذه القوات انسحب السلاجقة إلى الجبال[4].

كان نتيجة الهجوم السلجوقي المستمر والذي لم يعط اللومبارديين الفرصة لالتقاط أنفاسهم أن قرر هؤلاء السير صفًا واحدًا وعدم الانقسام، عسى أن يفلحوا في التصدي للسلاجقة، إلا أنهم لم يلبثوا أن واجهوا في هذه الرحلة المشئومة معاناة جديدة، فبعد السير لمدة ١٥ يومًا في تلك المنطقة الجبلية الشاقة أصابت المجاعة اللومبارديين، فلم

(1)Grousset, Croisades, I, p. 325.

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 565؛ Grousset, Croisades, I, p. 326.

(3)Albert d'Aix, Historia, p. 565.

(4)Albert d'Aix, Historia, 565.

يجدوا ما يسد رمقهم، وكان طعامهم في هذا الوقت كما يقول ألبرت دي إكس: «إنهم راحوا يمضغون قشور الأشجار والحشائش والجذور محاولين ملء بطونهم»[١].

في ظل هذه الظروف القاسية حاول ١٠٠٠ شخص من المشاة إنقاذ أنفسهم من هذا الجوع الشديد، فتركوا الجيش وأخذوا يبحثون عن طعام في المنطقة المحيطة بكستمون، فوجدوا أراضي مزروعة بالشعير فقاموا بحصده وأشعلوا النار لشيه، وما كادوا يفعلون حتى ظهر السلاجقة فجأة وأحاطوا بهؤلاء البؤساء الجائعين إحاطة الطوق بالمعصم، وأشعلوا النار في الأشجار حولهم فأتت عليهم جميعًا[٢].

ولاشك في أن السلاجقة قد استفادوا من طبوغرافية هذه المنطقة أفضل استفادة في القضاء على هذا الجزء المنفصل من الجيش، الذي دخل بإرادته هذه المنطقة التي كانت كما يقول ألبرت دي إكس: «منطقة جبلية لا تصلح لنصب معركة ولا توجد بها طرقًا ممهدة يستطيع جيش من خلالها الهروب وإنقاذ نفسه»[٣].

حقًا لقد كانت فاجعة مروعة أصابت اللومبارديين بالفزع من هذا العدو الذي ترصدهم كظلهم في كل حركة من حركاتهم وفي كل خطوة يخطونها، وبهذا كان منطقيًا بعد أن عانى الجيش اللومباردي كل هذه المآسي، أنه بمجرد وصوله إلى كستمون التي أصبحت الأمل الوحيد لإنقاذه من هذه الأخطار، أن يتابع رحلته إلى أحد الموانى البيزنطية على ساحل بحر بنطس ومنه إلى القسطنطينية، إلا أن اللومبارديين عادوا فجأة إلى فكرتهم الأولى-تحرير بوهيموند- وقرروا عبور نهر هاليس والاتجاه إلى نيكسار[٤].

وتتساءل زوي أولد نبرج Zoe Oldenbourg، عن السبب الذي جعل اللومبارديون يتراجعون عن رأيهم السابق، وكيف وافق قادة الجيش هؤلاء على انحرافهم هذا، واعتقدوا وهم لديهم ما لديهم من خبرة ودراية عسكرية أن الجيش وهو

---

(1)Albert d'Alix, Historia, pp. 565-566؛ (Grousset, Croisades, I, 326؛ Cate, Crusade of 1101, p. 355)

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 567؛ Cate, Crusade of 1101, p. 355.

(3)Abert d'Aix, Historia, 567.

(4)Albert d'Aix, Historia, p. 567؛ Grousset, Croisades, I, p. 326؛ Oldenbourg, Crusades, p. 209.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٤؛ رايس، السلاجقة، ص٦٣.

في مثل هذه الحالة السيئة يستطيع أن يحارب عدوًا أقوى منه وأكثر عددًا، ويتمكن من هزيمته في عقر داره؟[1].

يبدو أن ما دفع اللومبارديين إلى هذا الانحراف هو ما لاقوه طوال سيرهم من صعوبات، وما عانوه من جوع وتعب، فضلاً عن هجوم السلاجقة المستمر عليهم، والذي ظهر مؤخرًا في كمين كستمون، واعتقدوا أنهم بعبورهم نهر هاليس القريب سوف يجدون ما يحتاجون إليه من مؤن وإمدادات تساعدهم على مواصلة سيرهم وتحقيق هدفهم (تحرير بوهيموند)، ولم يسع القادة أمام إصرار اللومبارديين، سوى قبول هذا الرأي والانحراف[2].

بيد أن ذلك الاعتقاد كان وهمًا كبيرًا؛ وذلك لأن السلاجقة كما تقول أناكومنينا: قاموا بحرق وتدمير كل المؤن والمحاصيل قبل وصول اللومبارديين، وبذلك لم يجد هؤلاء أمامهم بعد عبورهم سوى أرض خالية من كل مظاهر الحياة[3].

على أي حال يمكن القول بأن هذه الصعوبات التي واجهت اللومبارديين منذ عبورهم إلى آسيا الصغرى، وما قام به السلاجقة من تدمير المدن والأراضي والحقول أمامهم تارة، والهجوم عليهم تارة أخرى، كانت الخطوات التمهيدية التي يضعها السلاجقة دائمًا أمام عدوهم لإعداده للمرحلة الأخيرة-بعد أن يكون التعب أخذ منه كل مأخذ- وهي الاشتباك معه في معركة حاسمة تمثل الضربة القاضية له، وكانت معركة مرسيفان Mersivan[4] هي هذه الخطوة النهائية للقضاء على الحملة اللومباردية في آسيا الصغرى.

فقد اصطلح المؤرخون على تسمية ما وقع للومبارديين على أيدي السلاجقة وحلفائهم في الأيام الأولى من شهر أغسطس بعد وصولهم مرسيفان باسم معركة،

---

(1)Oldenbourg, Crusades, p. 209.

(٢) علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص٤٣.

(٣) أنا كومنينا، الالكسياد، ص٦٢.

(٤) مرسيفان، تقع جنوبي شرق أماسيا بحوالي ٤٩ كم، وكانت من أملاك الدانشمنديين.
لمزيد من التفاصيل عن هذه المدينة:
انظر:

The Encyclopaedia of Islam, 6, (Leiden, 1991), pp. 1023-1024.

ولكن يمكن القول بأنها كانت مذبحة أبيد فيها الجيش الصليبي عن آخره على عدة أيام على أيدي السلاجقة، ذلك الجيش الذي قدره ألبرت دي إكس بأكثر من ٢٠٠ ألف، وقدرته أنا كومنينا بـ١٥٠ ألف، وذكر ابن الأثير أن عدده ٣٠٠ ألف، لم ينج من هذا العدد الضخم سوى ٣ آلاف، أخذوا طريقهم عبر الجبال والطرق الوعرة يتلمسون وسيلة لنقلهم إلى القسطنطينية(١).

ذلك أنه لم يكد يمر على كمين كستمون ستة أيام إلا وقام الجيش السلجوقي بقيادة قليج أرسلان الأول وحلفائه بمباغتة الجيش اللومباردي والهجوم عليه وهو على هذه الحالة من الجوع والإرهاق وفرضوا عليه القتال، بينما كان الجيش السلجوقي ينعم بالمؤن والراحة وفي قمة استعداده للمعركة، فاشتبك مع اللومبارديين واحتدمت المعركة بين الطرفين، وفي نهاية اليوم قام السلاجقة بالانسحاب، ولكن بعد أن كبدوا اللمبارديين العديد من الخسائر(٢).

وفي اليوم التالي -السبت- يبدو أن الجيش اللومباردي قد اعتقد أن السلاجقة لن يقوموا بأي هجوم عليه في هذا اليوم بعدما وقع من قتال في اليوم السابق، لذلك قاد القائد الألماني كونراد الفرسان الألمان وساروا يبحثون عن الطعام وقاموا بنهب قلعة سلجوقية مجاورة لمرسيفان، وفي أثناء عودتهم سلكوا طريقًا غير مباشر خوفًا من أن يهاجمهم السلاجقة، لكن السلاجقة الذين كانت أعينهم لا تغفل عن عدوهم لحظة واحدة، كانوا قد كمنوا لهم في هذا الطريق الوعر وقاموا بالهجوم عليهم، ولم يبد هؤلاء أية مقاومة؛ بسبب إجهادهم من قتال اليوم السابق، ووعورة الطريق وأحمالهم الثقيلة التي سلبوها من القلعة السلجوقية، فقتل السلاجقة منهم أكثر من ٧٠٠ شخص، ومن استطاع النجاة منهم ضل طريقه في الجبال(٣).

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 567.

أنا كومنينا، الالكسياد، ص٦٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٩.

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 567; Orderic Vitalis, Historia, 5, p. 337; Cate,Crusade of 1101,p. 356; Oldenbourg, Crusades, p. 210; Oman, Art of War, I, p. 241.

(3)Albert d'Aix, Historia, pp. 567-568. Cate, Crusade of 1101, p. 356;Grousset, Croisades, I, pp. 326-327.

=

لاشك أن اللومبارديين قد تأكدوا من أن السلاجقة وحلفاءهم مصممون على خوض معركة حاسمة ضدهم، وأدركوا أيضًا قوة هذا العدو وشدته، ومن ثم عملوا على الاستعداد للمعركة المقبلة معه، فنظموا أنفسهم في خمسة فرق وهي: اللومبارديون، والبرجنديون، والألمان، والفرنسيون، وريموند والفرقة البيزنطية، واتخذ اللومبارديون مكانهم في المقدمة استعدادًا للاشتباك الأول(١).

إلا أن السلاجقة لم يبدأوا أولًا بالاشتباك مع اللومبارديين في معركة بالسيوف والحراب، وهو أسلوب القتال المألوف في الغرب الأوربي، ومن خلاله يظهر الأوربيون فروسيتهم ومقدرتهم القتالية، لكن السلاجقة اتبعوا أسلوب قتالهم المعتاد فأمطروهم أولًا بوابل سهامهم، حيث كانت تأتي كل فرقة وتقذف العدو بسهامها وتنسحب بسرعة، فتأتي الثانية في أعقابها وتلقى سهامها وهكذا، حتى أنهكوا قوة الجيش وكبدوه خسائر كبيرة في الأرواح والخيول(٢).

وكانت هذه هي اللحظة المناسبة للالتحام مع اللومبارديين، فانقض السلاجقة على المقدمة التي تألفت من اللومبارديين الذين لم يحتملوا هذا الهجوم الشديد فولوا الأدبار وعلى رأسهم قائدهم ألبرت كونت بياندرات في فزع شديد مما عرض معظمهم للهلاك، وبالرغم من محاولة الفرقة الألمانية الصمود بقيادة كونراد الذي استمر في ساحة القتال حتى ظهر ذلك اليوم إلا أنه لم يسعه أمام الهجوم السلجوقي الشديد سوى الفرار بعد أن دحرت معظم قواته، وعندما رأى ستيفن كونت بلوا رفاقه ينسحبون عز عليه أن يهلك جيش المسيح فأبى الانسحاب هذه المرة وحاول جمع شمل الجيش ومقاومة السلاجقة، إلا أنه هزم وقتل عدد كبير من رجاله(٣).

=

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٣-٤٤.

(1)Cate, Crusade of 1101, p. 356.Albert d'Alix, Historia, p. 569؛

(2)Albert d'Alix, Historia, p. 569؛ Grousset, Croisades, I, p. 327؛ Oldenbourg,Crusades, p. 210.

(3)Albert d'Aix, Historia, p.569؛ Guibert of Nogent, Historia, p. 244؛Grousset, Croisades, I, p. 327؛ Brundage, Errant crusader, p. 392.

أنا كومنينا، الالكسياد، ص٦٢-٦٣.

أما ريموند كونت تولوز فبعد أن قُتل معظم رجاله وتخلى عنه التركوبول ونجا من الوقوع في أيدي السلاجقة بأعجوبة هرب مع عشرة رجال من رجاله إلى إحدى الصخور تاركًا الجيش يواجه مصيره المحتوم، إلا أن السلاجقة قاموا بمطاردته وكادوا أن يقتلوه لولا قدوم ستيفن كونت بلوا على رأس فرقة صليبية لإنقاذه، وعندما عاد إلى الجيش لم يقم بأي محاولة لإعادة تنظيمه ومقاومة السلاجقة، فلم يلبث أن فر تحت جنح الظلام[1].

ولكن لماذا هرب ريموند كونت تولوز ولم يحاول لم شمل الجيش وقتال السلاجقة؟، وكيف أقدم على هذه الخطوة الخطيرة؟!، هل كان هذا هو واجب القائد نحو جيشه؟!.

يبدو أن تعليل هذا الموقف المخزي من الأمير الصليبي يكمن في وضع الجيش اللومباردي بعد هزيمته أمام السلاجقة، فبعد أن عاد ريموند إلى الجيش واكتشف فداحة خسائره ومدى ضعفه، أدرك عدم جدوى المقاومة، فكيف يستطيع التصدي لهذا العدو القوي، وبمن يقاتل وقد هلك معظم الجيش ومن بقى منه كان في حالة يرثى لها، ولا يمتلك أي شيء حتى سلاحه فر وتركه، ففاجعة الجيش اللومباردي في آسيا الصغرى كانت فوق الاحتمال، ومن الصعب تداركها، ومن هنا لم يحاول ريموند القيام بأي محاولة لمقاومة السلاجقة.

على أي حال كان فرار الأمير الصليبي هذا نذيرًا بنهاية الحملة اللومباردية، فقد أصاب الفزع من بقى من الجيش نتيجة لهذا الهروب، وهربوا مثله تاركين وراءهم المعسكر بما فيه من أموال ونساء وأطفال لتقع غنيمة في أيدي السلاجقة، الذين انتهزوا هذه الفرصة وانقضوا على المعسكر واستولوا على ما فيه من ثروات وغنائم، وقتلوا كل وجدوه، أما النساء-صغيرات السن- والأطفال الذين أعجبتهم صورهم قاموا بأسرهم[2].

---

(1)Albert d'Aix, Historia, pp. 569-570؛ Orderic Vitalis, Historia, 5, p. 337؛ Oldenbourg, Crusades, p. 210؛ Richard, Croisades, p. 85؛ Brundage, Errant Crusader, p. 392.

الحريري، الأعلام والتبيين، ص٦٧؛بسام العسلي، الأيام الحاسمة، ص٧١.

(2)Albert d'Aix, Historia, pp. 571-572؛ Matthieu d'Edesse, Chronique, p. 242.

لم يكتف السلاجقة بما أحدثوه من قتل وسلب وأسر، بل إن هذا الانتصار فتح شهيتهم لتحقيق انتصارات أخرى، فقاموا بمطاردة الفارين، فأبادوهم عن بكرة أبيهم، ولم ينج منهم سوى حفنة قليلة من الفرسان الذين استطاعوا الفرار على خيولهم السريعة، وعبَّر ألبرت دي إكس عن المذبحة التي وقعت في هؤلاء بقوله: «إنهم (السلاجقة) أخذوا يحصدونهم بالسيف كما تحصد الغلال اليانعة».

ومما ساعد السلاجقة على تحقيق ذلك الانتصار ما حل باللومبارديين من ضعف، وانهيار لروحهم المعنوية بسبب ما وقع لجيشهم من هزيمة وقتل، بالإضافة إلى جهلهم بطرق ومسالك آسيا الصغرى[1]، فمن حالفه الحظ وأفلت من اللومبارديين من سيوف السلاجقة، لم يلبث أن قضى عليه الجوع والعطش في هذه الصحراء، واستولى السلاجقة على أموالهم التي عوضتهم عن الخسائر التي تحملوها في الحملة الصليبية الأولى[2].

وتحدث ألبرت دي إكس عن ضخامة الثروات التي استولى عليها السلاجقة بعد قتل أصحابها أو أثناء هروبهم من ذهب وفضة وغيرها، بأنها كانت تغطي مسافة تزيد على ثلاثة أميال جرى عليها الصليبيون ومطاردوهم السلاجقة، وإنها أرهقت السلاجقة في حملها لكثرتها[3].

لاشك أن معركة مرسيفان كانت كارثة عظمى للجيش اللومباردي، ذلك الجيش الذي لم يكن فرقة غير منظمة من الحجاج، وإنما كان جيشًا ضخمًا تعرض للهلاك، وقدر البعض أنه قضى على ٤/٥ الجيش (أي نسبة ٨٠٪)[4]، وخسر اللومبارديون صفوة

=

أنا كومنينا، الالكسياد، ص٦٣.

Richard, Croisades, p. 85؛ Archer, Crusades, p. 105. Cate, Crusade of 1101, p. 357؛ Oldenbourg, Crusades, p. 211.

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 572؛ Cate, Crusade of 1101, p. 357.

إسحق أرمله، الحروب الصليبية في الآثار السريانية، (بيروت ١٩٢٩)، ص٣٥.

(٢) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٢٣.

Guibert of Nogent, Historia, p. 244.

(3)Albert d'Aix, Historia, p. 573.

(4)Oldenbourg, Crusades, p. 2012؛ Wise, Wars, p. 19؛ Norwich, Byzantium, p. 44.

رجالهم وقادتهم مثل بلدوين أمير جراندبير، ودودو أمير كليرمونت، وولبرت صاحب لون، وأرنولف، وولتر صاحبا شاتيلون، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من القادة ووجهاء القوم، الأمر الذي دفع ألبرت دي إكس إلى القول بأنه: يعجز عن إحصاء هؤلاء الذين راحوا ضحية مرسيفان(١).

على هذا النحو تم القضاء على الجيش اللومباردي في آسيا الصغرى، ولم يعد ينتظر من ورائه أي فائدة بعد أن هلك رجاله، فقد استطاع ريموند بعد معاناة الوصول إلى القسطنطينية، أما القلة فقد وصلت إلى ميناء سينوب على بحر بنطس وسارت بمحاذاة الساحل حتى وصلت إلى القسطنطينية(٢).

ولا ريب أنه كان لهذا الانتصار الساحق للسلاجقة، وهذه النهاية المخزية التي آلت إليها الحملة اللومباردية وقع كبير على السلاجقة جميعًا في آسيا الصغرى، فانشرحت صدورهم بما حققوه من نصر محا هزيمة ضورولیوم في الحملة الصليبية الأولى، وأعاد لهم الثقة في قدرتهم العسكرية، بل استهانوا بقوة الصليبين وسرت فيهم روح قوية لقتال هذا العدو مما كان له أكبر الأثر في هزيمة الجيشين التاليين، وهما جيشا وليم الثاني كونت نافار، ووليم التاسع دوق أكويتين، اللذان قدما إلى آسيا الصغرى بعد ذلك مباشرة(٣).

*** إبادة جيش كونت نافار في آسيا الصغرى:**

بينما كان السلاجقة تملؤهم هذه الفرحة الغامرة والثقة بالنفس إذا بجيش جديد جاء ليخترق أراضي آسيا الصغرى بقيادة وليم الثاني كونت نافار، الذي تطوع لخدمة القضية الصليبية ومساعدة صليبي الشرق، واثقًا في جيشه الذي تألف من **١٥** ألف من القادة والجنود المدربين، وفي قمة نشاطه وقوته، فلم يصادفه طيلة رحلته ما يعكر صفوه

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 569؛ (Cate, Crusade of 1101, p. 357).

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 573؛Chalandon, Alexis Ier Comnene, p.227؛ Belloc, The Crusade, The world's Debate, (London 1937), p. 178؛Oldenbourg, Crusades, p. 211.

(3)Orderic Vitalis, Historia, 5, p. 339؛Oldenbourg, Crusades, p. 212؛Chalandon, Alexis Ier Comnene, p.228. Grousset, Croisades, I, p. 239.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧.

أو يضعفه، ومتأكدًا من وصوله إلى الأراضي المقدسة سريعًا، ولم يكن يعرف ما وقع للجيش اللومباردي من هزيمة ساحقة، أو يدور بخلده ولو للحظة واحدة ما ينتظره من مصير، أو يتوقع تلك الضربة القاسية التي قضت على جيشه وأطاحت بأحلامه على أراضي آسيا الصغرى[١].

فبعد أن عبر وليم الثاني بجيشه البسفور اتجه إلى كيفتوت حيث قضى بها أيامًا قليلة، ثم تركها مسرعًا إلى أنقرة ليلتحق بالجيش اللومباردي، فوصلها أواخر شهر يوليو، لكنه أصيب هناك بخيبة أمل؛ لأنه لم يجد فيها من يدله على خط سير الجيش اللومباردي، فرحل عنها بعد يوم واحد، وسار جنوبًا ليتخذ طريق جودفري دي بوايون في الحملة الصليبية الأولى[٢].

منذ ذلك الحين أخذ جيش وليم الثاني يواجه الكثير من الصعاب التي سوف تنتهي بهزيمته وتحطيمه في آسيا الصغرى، وكان أولها ما تعرض له من جوع وعطش شديدين في هذه المنطقة، ويرى البعض أن سبب ذلك هو ما تعرضت له هذه المنطقة من تدمير وتخريب أثناء الحملة الصليبية الأولى، فلم يجد فيها الجيش أي وسيلة لإمداده بالمؤن، أو مصدرًا للحصول على الماء اللازم له[٣].

هذا بالإضافة إلى هجوم السلاجقة المستمر على مقدمة الجيش ومؤخرته،ويذكر ألبرت دي إكس: أن السلاجقة الذين قاموا بهذا الهجوم هم قوات الجيش السلجوقي المتحد الذي أحرز الانتصار منذ قليل في معركة مرسيفان[٤]، بينما يعتقد أحد الباحثين أن من قام بهذا الهجوم هم السلاجقة المحليين الذين يقطنون هذه المنطقة[٥].

---

(1)Oldenbourg, Crusades, p. 213؛ Richard, Croisades, p. 85؛ Grousset, Croisades, I, p. 329؛ Cate, Gay Crusader, p. 519.

(2)Albert d'Aix, Historia, pp. 575-576؛ Belloc, Crusade, p. 179؛ Rousset, Croisades, p. 169؛ Riley-Smith, Crusades, p.36.

ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة/ محمد فتحي الشاعر، (القاهرة ١٩٩٣)، ص١٤٣.

(٣) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٨.

(4)Albert d'Aix, Historia, p. 576.

(5)Cate, Crusade of 1101, p. 359.

ويبدو أن هذا الرأي الأخير هو الأقرب إلى الصواب؛ ذلك لأن ألبرت نفسه يذكر بأنه في اليوم الثامن لمغادرة جيش كونت نافار أنقرة-وصل إليها في أواخر يوليو وغادرها بعد يوم واحد- علم السلاجقة بسيره وقاموا بمهاجمته[1]، إلا أن السلاجقة في ذلك الوقت كانوا في اللحظات الأخيرة من معركة مرسيفان، التي استغرقت الأيام الأولى من شهر أغسطس-بدأ الهجوم الأول يوم الجمعة واستمرت المعركة حتى يومي الثلاثاء والأربعاء حيث تمت في اليوم الأخير مطاردة الفرسان الذين هربوا على أثر هروب ريموند-، فلا يعقل أن يخوض الجيش السلجوقي معركتين في وقت واحد، وحتى إذا كان قد انتهى توًا من المعركة الأولى-مرسيفان- فإنه لم يكن باستطاعته الوصول من مرسيفان في الشمال إلى قونية في هذا الوقت القصير ليبدأ معركة جديدة.

على أي حال استطاع جيش وليم الثاني الصمود لهذا الهجوم بالرغم مما تكبده من خسائر، ووصل إلى قونية وقام بمهاجمة أسوارها، إلا أنه فشل في الاستيلاء عليها، فرحل عنها بعد حصار استمر ثلاثة أيام متجهًا صوب هرقلة، وكان سبب هذا الفشل هو المقاومة الباسلة لحامية المدينة التي لم تكتف فقط بالدفاع عن المدينة وإنما قامت بالهجوم على الجيش الصليبي المحاصر لها، هذا بالإضافة إلى قوة تحصينات قونية التي وقفت عقبة كبرى أمام جيش كونت نافار[2].

أثناء سير جيش وليم الثاني إلى هرقلة رأى الصليبيون الموت بأعينهم، حيث اشتدت معاناتهم من الجوع والعطش، الذي ضاعف من أثرهما حرارة شهر أغسطس الشديدة في هضبة آسيا الصغرى، مما أدى إلى موت أكثر من **٣٠٠** شخص، وأصاب الضعف باقي الجيش نتيجة الجوع والعطش[3].

لم يكن الجوع والعطش هما فقط عدوا الصليبيين في هذه المرحلة، وإنما جاء أيضًا هجوم السلاجقة ليزيد من آلامهم، فعلى امتداد مسيرتهم من قونية إلى هرقلة لم ينقطع

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 576.

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 376؛ Cate,Crusade of 1101, p. 359؛Grousset, Croisade, I, p. 329؛ Riley-Smith, Crusades, p. 36؛ Richard, Croisades, p. 85, علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص**٥١**.

(3)Albert d'Aix, Historia, pp. 576-577؛ Oman, Art of War, I, p. 242.

الهجوم السلجوقي عليهم ليل نهار، وأصبح أملهم الوحيد بعد كل هذه الصعاب هو الوصول إلى هرقلة عسى أن يستعيدوا قوتهم، إلا أن هذا الأمل قد تبدد بمجرد الوصول إلى هناك؛ ذلك لأن السلاجقة قد قاموا بتدمير كل مصادر المياه والإمدادات قبل رحيلهم من المدينة، حتى لا يجد الصليبيون فيها ما ينتفعون به إذا استولوا عليها، وعندما وجد الصليبيون المدينة على هذه الحالة من الدمار أصابهم الجنون وأخذوا يبحثون عن أي مصدر للماء ليروووا ظمأهم ولكن دون جدوى[1].

وكان أن أدرك السلاجقة هذه الحالة التي أصبح عليها الجيش الصليبي، فقاموا بالانقضاض عليه، وهم في ذروة نشوتهم بعد انتصارهم على الجيش اللومباردي، وعجز وليم الثاني عن مقاومة هذا الهجوم السلجوقي الشديد، ولقي هزيمة ساحقة راح ضحيتها معظم الجيش، ولم ينج من قواته سوى وليم الثاني مع عدد قليل من الفرسان تمكنوا من الهروب هائمين على وجوههم عبر جبال طوروس، حتى وصل من بقى منهم على قيد الحياة إلى قلعة بيزنطية تسمى جرمانيكوبوليس Germanicopolis-شمال غرب سلوقية-[2].

وعلى أثر ذلك اجتاح السلاجقة المعسكر الصليبي فقتلوا كل من وجدوه، وسبوا النساء والأطفال واستولوا على ما فيه من ثروات وغنائم[3]، أما وليم الثاني ورفاقه فقد استأجروا بعض الجنود المحليين لإرشادهم إلى أنطاكية، لكنهم قاموا بخيانتهم وسلبوهم أموالهم وخيولهم، وتركوهم في الصحراء، وعبر ألبرت دي إكس عن حالتهم بقوله: «إنهم كانوا حفاة عراة في صحراء قاحلة»، وقد ساروا في حالة شديدة من الإعياء

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 577؛ Oman, Art of War, I, 242؛ Cate, Crusadeof 1101, p. 359؛ Riley-Smith, Crusades, p. 36؛ Nowich, Byzantium p. 45.

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 577؛ Cate, Crusade of 1101, p. 359؛ Riley-SmithCrusades, p. 36.

سعيد أحمد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، (بيروت ١٩٨٤)، ص١٩٥.

علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص٥١-٥٢.

(3)Albert d'Aix, historia, pp. 577-578؛Cate, Crusade of 1101؛ p. 359.

والبؤس حتى وصلوا إلى أنطاكية في شهر سبتمبر[1].

هكذا قضى السلاجقة على الجيش الثاني من جيوش حملة سنة ١١٠١م، وكان انتصارًا رائعًا، هلك فيه من الصليبيين جيش قوي منظم اعترف الجميع بحسن تدريبه وتنظيمه، أباده السلاجقة في لمح البصر، وقلوبهم يملؤها الحماس والبهجة بقضائهم على الجيش الذي سبقه، وحالف السلاجقة الحظ في تحقيق ذلك الانتصار؛ حيث جاء مرور الجيش في فصل الصيف وحرارته الشديدة التي لا يحتملها هؤلاء الغربيون، الأمر الذي سهل على السلاجقة الكثير من خططهم وأدى إلى إنهاك الجيش والقضاء عليه بعد ذلك[2].

ومما يدل على الصعوبات التي واجهها وليم الثاني في رحلته عبر آسيا الصغرى هو رفضه المشاركة في الحملة الصليبية الثانية؛ وذلك حتى لا يخوض هذه التجربة القاسية مرة أخرى[3].

*** نهاية جيش دوق أكويتين-أقطانيا- في آسيا الصغرى:**

لاشك أن الانتصارات التي أحرزها السلاجقة على الجيشين السابقين قد حددت مصير الجيش الثالث والأخير من الجيوش التي تألفت منها حملة سنة ١١٠١م، بقيادة وليم التاسع دون أكويتين، وحكمت عليه بالفشل التام في آسيا الصغرى[4].

فبعد عبور وليم الثاني مضيق البسفور في منتصف شهر يوليو، اتخذ طريق الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى، فهذا هو الطريق الحربي المألوف للوصول إلى الشرق عبر آسيا الصغرى[5]، وقد اعتقد الدوق أنه باتخاذه هذا الطريق الذي يجتاز في معظمه أراضي استعادها البيزنطيون من السلاجقة بعد الحملة الصليبية الأولى قد كفل النجاح لحملته، فسوف يمر جيشه آمنًا، وسيجد ما يحتاج إليه من مؤن، ولن يعترض طريقه أي

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 578؛ (Grousset, Croisades, I, p. 330؛ Rousset,Croisades, p. 169).

(2)Cate, Gay Crusader, p. 516.

(3)Cate, Crusade of 1101, p. 365؛ Idem, Gay Crusader, p. 526.

(4)Cate, Gay Crusader, p. 516.

(5)Oldenbourg, Crusades, p. 214؛ Riley-Smith,Oman, Art of War, I, p. 242؛ Crusades, p. 36.

عائق، إلا أن الواقع كان على النقيض من ذلك، فالعبرة لم تكن في اختيار الطريق، فأي طريق سوف يأخذه الصليبيون في آسيا الصغرى سيقاتلهم فيه السلاجقة، وخير مثال على ذلك ما كان من أمر الجيش اللومباردي الذي انحرف بعيدًا عن طريق الحملة الصليبية الأولى، ومع ذلك تمكن السلاجقة من القضاء عليه.

فإذا كان صليبي الحملة الأولى قد استطاعوا المرور عبر آسيا الصغرى وهزيمة السلاجقة فإن ذلك لم يحدث إلا بعد أن تكبدوا الكثير من الخسائر، وكانت هزيمة السلاجقة إلى حد كبير، كما يقول جون فرانس: حظًا؛ حيث اخطأ قليج أرسلان الأول بعد انتصاره على حملة العامة في تقدير الحجم الكلي للقوة الصليبية، ومن ثم استخف بمقاومتهم، وترك عاصمته واتجه إلى ملطية للاستيلاء عليها، ولم يستعد الاستعداد المناسب لمثل هذه القوة، ومن ثم كانت هزيمته وكان انتصارهم(١).

على أي حال بعد عبور جيش وليم التاسع البسفور وصل إلى نيقوميديا ومنها إلى نيقية، التي رحل عنها بعد يومين إلى ضورورليوم، فقام بنهبها وتدميرها ثم تركها متجهًا إلى قونية(٢).

وقد تعرض جيش وليم التاسع في هذه المرحلة-بعد ضورورليوم- للعديد من الصعوبات: فطول سيره في هذه المنطقة لم يتوقف هجوم السلاجقة عليه، الذين مارسوا أسلوبهمالمألوف في القتال من قذف العدو بالسهام ومهاجمته دون الاشتباك معه في معركة حاسمة، فكانوا يهاجمون مؤخرة الجيش ثم ينسحبون بسرعة بعد قتل عدد كبير من رجالها، أو يقومون بإشعال النار في الأشجار على طول طريقه ليعرقلوا مسيرته بالحرائق والدخان طول النهار، وفي الليل يقومون بالهجوم عليه مما أوقع به العديد من الخسائر، هذا بالإضافة إلى الحر الشديد الذي كان دائمًا الكابوس المزعج الذي أرق صليبي هذه الحملة طيلة عبورهم آسيا الصغرى(٣).

لم يكن الهجوم السلجوقي وارتفاع درجة الحرارة هما كل ما عاناه جيش وليم

---

(1)France, Victory, p. 175.

(2) Albert d'Aix, Historia,p.580. Grousset, Croisades, I, p. 330.

(3)Ekkehard of Aura, Hierosolymita, p. 31. Oldenbourg, Crusades, p. 214؛. Finlay, Hist. Greece, 3, p. 115.

التاسع في هذه الرحلة المشئومة، وإنما جاء الجوع والعطش ليزيدا من هذه المعاناة، فبالرغم من أن وليم التاسع قد حاول تجنب هذه الصعوبة فزود جيشه بوفرة، ثم مكث في القسطنطينية خمسة أسابيع يشتري ويدخر المواد الغذائية، إلا أن هذا لم يجدِ؛ حيث نفذت مؤن الجيش أثناء سيره إلى قونية، وإذا طمع الصليبيون بعد ذلك في شراء المؤن على طول الطريق، فإن ذلك كان وهمًا كبيرًا؛ حيث قام السلاجقة بحرق وتدمير المحاصيل والحقول أمام الصليبيين، هذا بالإضافة إلى أن مرور جيش وليم الثاني كونت نافار في هذا الطريق منذ أيام قليلة قضى على ما تبقى من المؤن القليلة التي كان يمكن لهذا الجيش الحصول عليها[1]، فضلاً عن معاناته من العطش الشديد، خاصة بعد أن طمر السلاجقة الآبار، ودمروا مستودعات المياه أمامهم، فلم يجد الصليبيون في هذه الصحراء الماء ليروي عطشهم، «وجابوا صحراء آسيا الصغرى دون ماء، فلا يوجد على مرمى البصر سوى صحراء قاحلة، وصخور صماء، وما عثروا عليه من ماء كان مسمومًا أو مالحًا»[2].

حقًا لقد كانت المعاناة شديدة على الجيش الأكويتيني في هذه المرحلة عبر آسيا الصغرى، وفي هذا الصدد يذكر إيكهارد:«إنني لو أردت أن أحصي تلك المآسي والصعاب التي اعترضت الجيش لما استطعت ولخانني القلم في التعبير عنها»[3]، وإذا أمل الصليبيون أن يجدوا في قونية ما يعوضهم عما لاقوه من معاناة وما يساعدهم على تجديد نشاطهم، فإن ذلك لم يحدث؛ وذلك لأن سكان المدينة عند رحيلهم قد حملوا معهم كل ما فيها من مؤن ومواد غذائية، وجردوا البساتين والأشجار من الثمار، وبهذا لم يجد الصليبيون في قونية ما ينتفعون به، وخاب ظنهم وزادت مأساتهم[4].

---

(1)Albert d'Aix, Historia, pp.580–581؛Cate, Gay Crusader, p. 518؛ Oman, Art of War, I, 242؛ Oldenbourg, Crusades, p. 214.

(2)Albert d'Aix, Historia, p. 582؛ Matthieu d'Edesse, Chronique, p.243؛ Cate, Gay Crusader, p. 518؛ Idem, Crusade of 1101, p.361؛ Grousset, Croisades, I, p. 331.

(3)Ekkehard of Aura, Hierosolymita, p. 31.

(4)Albert d'Aix, Historia, p. 580؛ Grousset, Croisades, I, p. 331.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٥١.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في الوقت الذي دخل فيه جيش وليم التاسع مدينة قونية كان السلاجقة يجرون مذبحتهم في جيش كونت نافار، ويرى أحد الباحثين أن جيش وليم التاسع قد عرف بأمر هذه المذبحة، مما زاد من آلامهم(١).

لكن يبدو أن الصليبيين لم يعرفوا ما وقع لكونت نافار من هزيمة، بدليل أنهم قاموا بمواصلة رحلتهم على نفس الطريق، فلو علموا بذلك لما ساروا على نفس الدرب وهم يدركون تمام الإدراك أن العدو الذي يرقص فرحًا بعد تحقيق هذا الانتصار سوف يقضي عليهم لا محالة.

على أي حال فإن المسافة بين قونية وهرقلة (٥٠ ميل) كانت كافية للقضاء على الجيش الأكويتيني؛ إذ أن سياسة السلاجقة القائمة على تدمير كل مصادر الإمدادات أمام الصليبيين قد ظهرت نتائجها وأتت أكلها بصورة كبيرة، فكان الصليبيون في ذلك الوقت يموتون جوعًا وعطشًا، وأصابهم الوهن الشديد، ولم يكتف السلاجقة بذلك بل أخذوا يشنون هجماتهم على هؤلاء البؤساء، ويقتلون كل من ضل الطريق عن الجيش، أو خرج بحثًا عن الغذاء(٢).

وبذلك عندما وصل جيش وليم التاسع مدينة هرقلة في ٥ سبتمبر كان في حالة يرثى لها، وهو ما كان يدركه السلاجقة، ورغبة منهم في العمل على زيادة تدهور حالة الصليبيين، قاموا بإخلاء المدينة من كل شيء يمكن أن يستفيد منه هؤلاء، وفي نفس الوقت كمن جيش قليج أرسلان الأول وحلفاؤه للجيش الأكويتيني داخل الأشجار الموجودة على ضفتي نهر يوجد خلف مدينة هرقلة، وبمجرد رؤية قوات وليم التاسع للنهر اندفعوا بسرعة نحوه، وبدون اتخاذ أية احتياطات ليرووا عطشهم بعد هذه المرحلة التي صادفوا فيها كل صنوف العذاب، ولم يكن يعرفوا أن الهلاك ينتظرهم على ضفتيه، حيث انقض السلاجقة عليهم فأخذتهم المفاجأة في الوقت الذي أضعفهم فيه الجوع والعطش، وعجزوا عن المقاومة، فارتدوا على أعقابهم بلا نظام بعد أن أصابهم

---

(1)Oman, Art of War, I, p. 242.

(2)Oman, Art of War, I, p. 242؛ Grousset, Croisades, I, p. 331؛ Richard, Croisades, p. 86.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٥١-٥٢.

الفزع محاولين الهرب من أي منفذ، إلا أن السلاجقة لم يتركوا هذه الفرصة لهم، فقاموا بتطويقهم ومزقوهم شر ممزق[١].

وقد حاول البعض ممن استطاع الهروب من هذه المذبحة، الاختباء خلف الأشجار، إلا أن هذا كان ضربًا من المستحيل بعد أن امتلك السلاجقة ناصية الأمور وأصبح كل شيء في هذه المنطقة واضحًا أمامهم، فقاموا بقتلهم جميعًا، في حين حاول البعض الآخر الهروب عن طريق تتبع مجرى النهر، أو الاختفاء في الجبال، ولكن معظم هؤلاء كان مصيره القتل أو الوقوع في أسر السلاجقة[٢].

هكذا تم القضاء على معظم جيش وليم التاسع، الذي قدره متى الرهاوي، وأوردريك فيتاليس بـ٣٠٠ ألف، في حين ذكر ألبرت دي إكس أن عدده يبلغ ١٦٠ ألف في هذه المعركة، ولم ينج منه سوى كبار القادة الذين أنقذتهم خيولهم السريعة من الوقوع في قبضة السلاجقة[٣]، وفر وليم التاسع مع حارسه وظل هائمًا على وجهه في الجبال، حزينًا على تحطيم جيشه، حتى وصل إلى موانى مدينة طرسوس-ميناء لونجينذا Longinath-، وعندما سمع تانكرد أمير أنطاكية بنكبته أشفق عليه، وأرسل إليه يطلب منه المجيء إليه، واستقبله بترحاب، ولم يتمكن ولف الرابع دوق بارفاريا من الهروب إلا بعدما ألقى ما عليه وما معه من أسلحة وسار في هذه الجبال حتى وصل إلى أنطاكية، أما هيو اف فيرماندوا-الذي جاء إلى الشرق ليكفر عن فراره أثناء الحملة الصليبية الأولى- فقد أصابه سهم من سهام السلاجقة ومات في طرسوس متأثرًا بجراحه[٤]، أما المشاة البائسون فقد كانوا الضحية دائمًا في هذه الجيوش، فلم ينج منهم

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 581؛ Matthieu d'Edesse, Chronique, pp.243-244؛ Oman, Art of War, I, pp. 242-243؛ Cate, Gay Crusader, p. 518؛ Belloc, Crusade, p. 179.

(2)Cate, Crusade of 1101, p. 361 .Albert d'Aix, Historia, p. 581؛

(3)Matthieu d'Edesse, Chronique, 224؛ Orderic Vitalis, Historia, 5, p. 341؛ Albert d'Aix, Historia, p. 579.

(4)Albert d'Aix, Historia, pp. 581-582؛ Orderic Vitalis, Historia, 5, p. 341؛Cate, Gay Crusader, p. 518؛ Idem, Crusade of 1101, p. 362؛ Grousset,Croisades, I, pp. 331-332.

سوى شخص واحد يدعى أيفرجين Auvergne، أما النساء فقد قتلن أو وقعن في أسر السلاجقة، ومنهن كوربا زوجة جودفري أف بيرل Geodfry of Burel، ولكن أيدا Ida دوقة النمسا فيقول ألبرت دي إكس: بأنه لا يعرف ما إذا كانت قد ماتت أو وقعت في أسر السلاجقة، ويرى البعض أنها وقعت بمحفتها أثناء الاضطراب في المعركة وماتت تحت الأقدام(١).

بهذه الهزيمة الأخيرة انتهت الفائدة المرجوة من حملة سنة ١١٠١م، التي جاءت لتقديم العون والمساعدة لصليبي الشرق، وتعويض النقص الشديد في القوة البشرية، فلم ينج من هذه الجيوش سوى عدد قليل لا يسمن ولا يغني من جوع، ويعجز عن القيام بأي عمل ذي فائدة في الشرق، وتحولت هذه الحملة من حملة عسكرية عقدت عليها الآمال الكبيرة إلى رحلة حج لزيارة الأماكن المقدسة(٢).

من استطاع النجاة من جيش وليم الثاني كونت نافار، ووليم التاسع دوق أكويتين ذهب إلى أنطاكية وانضمت إليهم فلول الحملة اللومباردية التي جاءت من القسطنطينية إلى هناك، وفي نهاية سنة (٤٩٥هـ/١١٠٢م) اجتمع في أنطاكية فرقة صليبية تألفت من ألبرت كونت بياندرات، وكونراد قائد الإمبراطور هنري الألماني، وستيفن كونت بلوا، وستيفن كونت برجنديا، ووليم الثاني كونت نافار، ووليم التاسع دوق اكويتين، وولف الرابع دوق بافاريا، وريموند كونت تولوز، بعد أن فقدوا جيوشهم وضاعت هيبتهم في آسيا الصغرى على يد السلاجقة(٣).

وبعد أن صاحبت هذه الفرقة ريموند كونت تولوز عند استيلائه على أنطرسوس ذهبت إلى بيت المقدس، وبعد أن أدوا حجهم عاد معظمهم إلى بلاده، ومن عجز عن الرحيل بسبب هبوب رياح شديدة شارك بلدوين ملك بيت المقدس في معركة الرملة

---

(1)Albert d'Aix, Historia, p. 581؛ Cate, Crusade of 1101, p. 362؛ Grousset,Croisades, I, p. 331؛ Oman, Art of War, I, p. 243.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٢-٥٣.

(2)Cate Crusade of 1101, p. 362.

(3)Cate Crusade of 1101, p. 363؛ Idem, Gay Crusader, p. 519؛Grousset, Croisades, I, p. 333؛ Oman, Art of War, I, p. 243؛ Brundage, Errant Crusader, p. 392.

الثانية والتي انتهت بدحر الجيش الصليبي وقتل فيها ستيفن كونت برجنديا وستيفن كونت بلوا[١].

على هذا النحو كان مصير جيوش حملة سنة ١١٠١م في آسيا الصغرى، ذلك المصير الذي كان من الصعب توقعه لهذه الجيوش الضخمة التي ذكر البعض بأنها مساوية في أعدادها للحملة الصليبية الأولى، في حين اعتبرها البعض الآخر تفوق الحملة الصليبية الأولى في أعدادها[٢].

على أي حال فإن إبادة هذه الجيوش في آسيا الصغرى تؤكد مدى خطورة الطريق البري عبر هذا الإقليم ودوره في فشل هذه الحملة الصليبية، فبالرغم مما ذكره البعض من أن سبب فشل هذه الحملة هو عقاب من الرب للمشاركين فيها، بسبب ما ارتكبوه من آثام وشرور وفوضى[٣]، وما ذكره البعض الآخر عن خيانة وتآمر الكسيوس ضد هذه الحملة في آسيا الصغرى[٤]، إلا أنه يمكن القول بأن السلاجقة في آسيا الصغرى كان لهم الدور الحاسم في القضاء على هذه الجيوش، فإذا كان الانقسام بينهم قد يسر إلى

---

(1)Cate, Crusader of 1101, pp. 363-365؛ Idem, Gay Crusader, p. 51؛ Louis and Riely Smith, The Crusades, Idea and Reality 1095-1274, (London 1981), p. 15.

- لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث:

Anonymus, Secunda Pars Historiae Ihierosolimitanae, R.H.C. H-Occ, 3, (Paris 1866), p. 562؛ Gotfridi Anonymus Rhenani, Historia et Gesta Ducis Gotfrid, R.H.C. H-Occ., 5, (Paris 1895), p. 509.

ممدوح محمد مغازي هلول، الرملة ودورها السياسي في الصراع الإسلامي (١٠٩٩-١٢٢٥م، ٤٩٢-٦٤٨هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة الزقازيق، ١٩٩٦م، ص٧٨-٨٧.

- يرى برندج Brundage أن ستيفن كونت بلوا تم أسره في هذه المعركة على يد الفاطميين وتم إعدامه بعد ذلك من المحتمل في عسقلان في ١٩ مايو.

Brundage, Errant Crusader, p. 394.

(2)Riely-Smith, Crusades, p. 35؛ Belloc, Crusade, p. 177؛ Bell, Mediaval Europe, p. 47؛ Oldenbourg, Crusades, p. 206.

رأفت عبد الحميد، خيانة القضية الصليبية، ص٨٥.

(3)Matthieu D'Edesse, Chronique, p. 242؛ Richard, Croisades, p. 86؛ Louis and Riley-Smith, Crusades, p. 15؛ Cate, Gay Crusader, p. 520.

(٤) انظر ما سبق، الفصل الثاني.

حد ما عبور صليبي الحملة الأولى في آسيا الصغرى، فإن الوضع عند قدوم هذه الحملة كان قد اختلف تمامًا، فقد اتحد السلاجقة وأصبحوا يدًا واحدة تملأ قلوبهم رغبة قوية في الانتقام من هذا العدو والقضاء عليه، واستعانوا بقوات إسلامية أخرى واستعدوا تمام الاستعداد لمواجهته، وكانت هذه الوحدة أمرًا مفاجئًا للصليبيين لم يتوقعوه أو يعملوا له حساب[١].

وساعدهم في تحقيق هذا الانتصار أن هذه الجيوش الصليبية سارت منفصلة عن بعضها البعض، فكان السلاجقة يتجهون إلى كل جيش وبعد إبادته يتجهون للآخر ويؤدون معه نفس الدور وهكذا، حتى قضوا على هذه الجيوش جميعًا[٢]، يضاف إلى ذلك أن الصليبيين لم يوفروا المؤن والإمدادات التي تكفي لسيرهم الطويل، وإنما اعتمدوا على ما يحصلون عليه عبر طريقهم، فاستغل السلاجقة هذه الفرصة، وقاموا بتدمير كل شيء يمكن أن ينتفع به هؤلاء في طريقهم[٣].

ومما زاد الطين بلة أن هذه الجموع البائسة لم تكن تعرف أي شيء عن طرق آسيا الصغرى ومسالكها، كما أن المرشدين الذين اعتمدوا عليهم لم تعد معارفهم عن طرق آسيا الصغرى ذات جدوى؛ بسبب ما طرأ عليهم من تغيرات، في الوقت الذي استغل فيه السلاجقة معرفتهم بهذه الطرق، وما وفرته لهم ظروف المنطقة الطبيعية في نصب معارك المراوغة وعمل الكمائن وغير ذلك من أساليبهم القتالية التي لم يكن لدى الصليبيين أية فكرة عن مقاومتها، الأمر الذي ساعد السلاجقة في القضاء عليهم[٤].

مما سبق يتضح الدور الذي لعبه إقليم آسيا الصغرى في فشل حملة سنة ١١٠١م في الوصول إلى الشرق، ذلك الفشل الذي عبَّر رنسيمان عن نتائجه بقوله: «... وأثرت كوارثها في سيرة الحركة الصليبية بأسرها، إذ أخذ الترك بالثأر لما حل بهم من هزيمة في

---

(1)Cate, Gay Crusader, p. 521.

عبد الغني رمضان، السلاجقة والصليبيون، ص٥٥.

(٢) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢١٥.

Cate, Crusade of 1101, p. 367؛ Idem, Gay Crusader, p. 522.

(3)Cate, Gay Crusader, p. 522.

(4)Cate, Gay Crusader, p. 522؛ Oman, Art of War,242.

ضوروليوم، ولن يجري بحال من الأحوال طردهم من بلاد الأناضول (آسيا الصغرى)، وظل الطريق الذي يجتاز شبه الجزيرة غير مأمون للجيوش المسيحية الصليبية والبيزنطية سواء... على حين أن المهاجرين الفرنج القادمين من الغرب كانوا يخشون اتخاذ الطريق البري الذي يجتاز القسطنطينية... ولم يعد في وسعهم القدوم إلا بحرًا"(١).

فلقد قضت هذه الانتصارات الرائعة على الأثر الرنان الذي تركه انتصار ضوروليوم سنة ١٠٩٧م، واستعاد السلاجقة هيبتهم وسمعتهم الحربية، فإذا كان الغرب قد استهان ولو للحظة واحدة بهذه القوة فإن هذه الإنتصارات قد أثبتت مهارة هذا العدو وأنه من الصعب هزيمته، وأن انتصارات الحملة الأولى تمت بالمصادفة ونتيجة لعنصر المفاجأة(٢).

كما أن إبادة هذه الحملة أدى إلى القضاء على خطر كبير كان يمكن أن يهدد الوجود الإسلامي في بلاد الشام، فلو حدث ونجحت هذه الحملة في هزيمة السلاجقة، وتم طردهم من آسيا الصغرى، لأضحى الطريق سهلاً للوصول إلى الشرق، مما سيؤدي إلى تدفق المزيد من الجيوش الصليبية وإذا لم تجد هذه الجيوش ما يعترض طريقها ووصلت بكامل أعدادها وعدتها إلى بلاد الشام، لقدمت لهؤلاء الزعماء الصليبيين ما كانوا يحتاجون إليه من قوات للتوسع وللاستيطان على حساب المسلمين، بل وربما استطاعوا احتلال كل بلاد الشام(٣).

بل ويذهب أحد الباحثين إلى أبعد من ذلك حيث يرى أنه لو نجحت هذه الحملات في الوصول إلى الشرق لقدمت لبلدوين ملك بيت المقدس ما يحتاجه من قوات للاستيلاء على مصر، بل وتهديد الأماكن المقدسة في الحجاز، ولكن أدت هزيمتها في آسيا الصغرى إلى حرمان الإمارات الصليبية في الشرق من قوة بشرية كانت

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٢-٥٣.

(2)Oldenbourg, Crusades, p. 215.

عبد الغني عبد العاطي، السياسة الشرقية، ص٣٢٢.

(3)Grousset, Croisades, I, p. 332; Rousset, Croisades, p. 170.

علي الغامدي المجاهد المسلم، ص٦٧-٦٩.

في أمس الحاجة إليها[١].

يضاف إلى ذلك أن هذه الانتصارات المتتالية على ثلاثة جيوش ضخمة على رأسها العديد من القادة والشخصيات البارزة في المجتمع الغربي، أدت إلى الاستهانة بقوة الصليبيين الحربية التي لم تثبت أمام سيوف وسهام السلاجقة، مما كان له أثر كبير في رفع روح المسلمين المعنوية ليس فقط في آسيا الصغرى، وإنما أيضًا في إقليم الجزيرة، وإيقاظ روح الجهاد ضد الصليبيين[٢].

وكان من أهم النتائج التي ترتبت على فشل هذه الحملات غلق الطريق البري من أوربا إلى بلاد الشام عبر آسيا الصغرى، فلم يعد بوسع الغرب الأوربي الاتصال بالشرق الإسلامي إلا عن طريق البحر، بعد أن أصبحت آسيا الصغرى شبحًا مخيفًا وشركًا يؤدي إلى هلاك كل من يحاول الاقتراب منه[٣]، فبعد أن اعتقد الغرب الأوربي بعد الحملة الصليبية الأولى وما تلاها من فتوحات الكسيوس في آسيا الصغرى أنه من السهولة بمكان عبور أراضي السلاجقة، فإن هذه الانتصارات السلجوقية محت هذا الاعتقاد، وأكدت أن وسط آسيا الصغرى كان تحت قبضة السلاجقة ويشكلون خطورة كبيرة على باقي أجزائها[٤].

******

(١) علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص٦٩.

(Grousset, Croisades, I, p. 332).

(٢) بسام العسلي، الأيام الحاسمة، ص٧١؛ عبد الغني رمضان، السلاجقة والصليبيون، ص٥٥؛علي الغامدي، المجاهد المسلم، ص٧١-٧٢.

(٣) حسن عبد الوهاب، أثر العوامل الجغرافية. ص٢٩٣-٢٩٤؛ السيد الباز، الحروب الصليبية، ج١، ص٣٠٢.

(4)Foss, Defenses of Asia Minor, p. 149.